أنسنة المكان

في روايات عبد الرحمن منيف

دكتور
مرشد أحمد

مكتبة النقد الأدبي
LITERARY CRITICISM LIBRARY

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ /٠٣ الإسكندرية

أنسنة المكان

في روايات عبد الرحمن منيف

الناشـــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن دربالة - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com

dwdpress@biznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب : أنسنة المكان فى روايات عبد الرحمن منيف

المؤلـــــف: د. مرشد أحمد

رقـم الإيداع: ٢٤٩٦ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى: 1 - 228- 328 - 977

أنسنة المكان

فى روايات عبد الرحمن منيف

دكتور
مرشـــد أحمـــد

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الإهداء

إلى عشباء ديمومة العشق والخصب

التمهيـــد

تعد الأنسنة من أروع القيم الجمالية في الفن، لأنها رؤيا فنية فائقة لا تخضع للمقاييس المنطقية، ولا تشابه الأحداث الواقعية، يضفي فيها الفنان صفات إنسانية محددة على الأمكنة، والحيوانات، والطيور، والأشياء، وظواهر الطبيعة حين يشكلها تشكيلاً إنسانياً، ويجعلها كأي إنسان تتحرك، وتحس، وتعبر، وتتعاطف، وتقسو حسب الموقف الذي أنسنت من أجله.

والأنسنة ظاهرة عامة في الفن، والفنان حين يؤنسن الأمكنة والحيوانات والطيور والأشياء وظواهر الطبيعة، ويخضعها لعملية تفاعل حميمة مع الإنسان، لتحقق الدور الإنساني الذي أسنده إليها حين طمح إلى تشكيلها تشكيلا إنسانياً ذا ملامح محددة، وتعابير بينة، في عمله الإبداعي، يمنحها – وهو في ذروة حالته الانفعالية– خاصيته الإنسانية متخذا أحد الأوضاع التالية:

فهو إما أن يدور بمشاعره حولها، ومعها، أو يمزج إحساساته بها، أو ينصهر فيها، وعن الحالة الأولى نقول: إنه متعاطف معها، وعن الثانية متحد بها، وعن الثالثة منعدم فيها، وهذه الحالات الثلاث لون واحد من الترابط، إلا أن الترابط في كل منها ليس واحداً، لأن الفرق بين أنماطه الثلاثة كالفرق بين المشاركة والاتحاد والحلول، ففي المشاركة تحس الذات المبدعة أنها مع الشيء (المؤنسن) أو حوله، وهي درجتان: عطف وفيه يكون بين الذات والشيء إحساس طفيف وأساس غائم من الشعور، وتعاطف وفيه يكون بينهما فورة انفعالية تكسب فيها الذات الشيء مشاعرها الجياشة، وفي الاتحاد تحس الذات أنها بالشيء، وهو نوعان: تجسيد حيث تمنح الذات الشيء جسمها وأعضاءها وباختصار شيئيتها، وتشخيص حيث تسقط الذات على الموضوع

أهم صفاتها الإنسانية الجوهرية، وتجعله يتشكل ويتحرك، ويحس، ويتطـــور، وفي الحلول تحس الذات أنها في الشيء، ولا تنظر إليه، بل تنظر فيه، إنـــها تراه في داخلها، ولنقل بمعنى آخر، إنها لا تراه، لأنه ليس شيئا خارجا عنـها، وإنما هو ذاتها[1].

وفي هذه الحالات الثلاث تتآلف الذات الإنسانية المبدعة مـــع الـــذات غير العاقلة (المؤنسنة) التي قد تكون مكانا أو حيوانا أو طيرا أو شـــيئا مـــن الأشياء، أو ظاهرة من ظواهر الطبيعة، هذه الذات غير العاقلة تذوب ماهيتـها الحقيقية، وتكتسب عوضا عنها ذاتا إنسانية، لأن الذات الإنسانية المبدعة تقـوم أثناء الأنسنة بعملية إسقاط نفسية لمشاعرها وعواطفـها وخصائصـها علـى الموضوع الذي تؤنسنه، مما يجعله يتوازى، ويتماهي مـــع الـــذات العاقلـــة، ولذلك تصبح الذات غير العاقلة عاقلة، وتخرج عن وظيفتـــها البيولوجيـــة إذا كانت حيوانا أو طيرا، أو الطبيعية إذا كانت إحدى ظواهر الطبيعـــــة، لتقـوم بدور إنساني جديد، يتماهي مع ذاتها الجديدة، فيبدو عملها في العمل الأدبـــي متسما بالجمال والروعة.

والفنان يؤنسن تجليات العالم الخارجي، ويدخلها إلى عملـــه الفنـــي، ويدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد، لتسهم في خلق المناخ العام الذي يطمـح أن يحققه، وليجعلها تتجاوز مع الإنسان ومشاعره وأفكـــاره، كـــي تشـــاركه المعاناة والقهر والفرح في الحياة، وتجيء هذه المجاورة نتيجة لحاجة ذاتيـــة وفنية، تسعى إلى تفسير الأحداث تفسيرا داخليا متمـــيزا، وتصويـــر الحيـــاة تصويرا خلاقا برؤية جديدة تتسم بالشمولية والإنسانية المطلقـــة، لأن الفنـــان يرى "من الضروري خلق مجاورات جديدة بين الأشياء والأفكـــار تتجـــاوب

---

[1] اليافي، د. نعيم: ١٩٨٣ – تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديـــث، اتحـــاد الكتاب العرب، دمشق، را ص ١٥٦ – ١٥٧.

وطبيعتها الفعلية .. وعلى أساس هذه المجاورة الجديـــدة للأشـــياء يجـــب أن تتكشف لوحة جديدة للعالم مشبعة بضرورة داخلية حقيقية"[1].

لذلك حين يؤنسن الفنان الأمكنـــة والحيوانـــات والطيـــور والأشـــياء وظواهر الطبيعة في عمله الفني، نتعرف بشكل جديد، يتسم بالعمق والروعـــة إلى تجليات العالم الخارجي الذي يصبح أكثر حيوية وحياة وإنسانية، ونتلمـــس في الوقت نفسه رؤية الفنان الفكرية للحياة والمدى الإنساني الذي تتســـم بـــه، ونعي الدوافع التي دفعته إلى التعبير عن رؤيته بهذا الأسلوب أو دور الحـــس الجمالي في تشكيل رؤيته، لأن "الحس الجمالي مكون حيوي للنشاط الإنســـاني الذي يبحث عن الحقيقة من قبل أن يرى الشيء أو يتأمله، فإذا التقى بالشـــيء حسياً وشعورياً، حركه مع مشاعره فيجعله ينطق بالحقيقة التي عاشـــها مـــن قبل في شكل رؤى"[2].

وعبد الرحمن منيف منح المكان على مستوى (النـــص والخطـــاب) ملامح خاصة جسدته شخصية اعتبارية، وجعلته يتصدر واجهة السرد، لكونه تجلى بؤرة تشع منها المادة الروائية على أنساق النص الروائي. وعمل علـــى ربطه بالإنسان ربطاً رحمياً، ولذلك أصبحا ذاتاً واحدة.

ولأن الإنسان هو المبدأ الجليل الذي يعتنقه، وغاية الحياة في نظـــره، ومثله الأعلى خصص نصه الروائي لتصوير واقع الإنسان العربي المتمـــيز بحالة مستمرة من النكوص المرير الذي ينوء تحت سطوته القاسية في ظـــل إنتفاء المبادئ والقيم والمثل الإنســـانية، وانعـــدام أسـس الحيـــاة الكريمـــة المشروعة، وللتعبير عن تطلعاته وأحلامه وسعيه الدؤوب للخلاص من قســوة

---

[1] باختين، ميخائيل: ١٩٩٠ – أشكال الزمان والمكان في الرواية. تر: يوسف حـــلاق، وزارة الثقافة – دمشق، ص ١١٩ – ١٢٠.

[2] سالم، د. نبيلة إبراهيم: ١٩٨٠ – نقد الرواية من وجهة نظر الدراســـات اللغويـــة، النادي الأدبي، الرياض، ص ٥٢.

المعاناة الجحيمية التي يكابدها على مختلف مستويات الحيـــاة دون شـــعور أو رحمة أو رأفة من الآخرين أيا كانوا، لذلك أنسن المكان بمفهومـــــه الشـــامل كاسم دال على شخصية اجتماعية ذات ملامح متميزة، وأنسن أيضا مكونـــات المكان من حيوانات وطيور ونبات وأشياء وظواهر طبيعية، وجعلـــها تحـــس بالإنسان تعويضا عن غياب أخيه الإنسان وقت الضرورة الملحة، وتعبر عـــن احتجاجهما على الواقع القاسي الذي يعاني منـــه الإنســـان معانـــاة قاســـية لا تحتمل.

وبهذه الأنسنة كشف منيف عن نظرته الجمالية إلى العالم الخـــــارجي وإلى الحياة كما يجب أن تكون.

مرشـــد أحمـــد

الفصل الأول

تجليات أنسنة المكان

الدال على شخصية اجتماعية

تميز المكان في روايات منيف بالقدرة على صياغة شخصية بشـــره الجماعية وفق شخصيته الإقليمية المتميزة، وحدد لهم نمط حياتـــهم، ونســق علاقاتهم العامة، وضبطها وفق مبدأ جماعي أخلاقي، وجعلهم مشدودين إليـــه بشكل رحمي مستمر، ومتمسكين به، لأنه كيانهم، وهويتهم الواحـــدة، فظلـــوا متوحدين به، وقد تجسدت هذه الوحدة بسعيهم الدؤوب إلى التخلص من الواقع المزري الذي فُرض عليهم نتيجة تعرض مكانهم لعامل خطير غيّر ملامحـــه، وشوّه شخصيته المتميزة، ليواصلوا الحياة الكريمة التي عاشوها من قبل، ممـــا جعل المكان يكتسب بتوحده مع بشره ذاتهم الإنسانية، ولأن الذات الإنســـانية تتميز بسمات متنوعة يمكن إدراجها تحت رتبين: ســـمات حســـنة (إيجابيـــة) وسمات سيئة (سلبية). أنسن المكان بهاتين السمتين وسنبين السمات الحســـنة ثم السيئة، فالسمات الإنسانية الحسنة التي تميز المكان بها هي:

١- **الوعي:** إن الوعي سمة ذات مردود كبير على من يتصف بـــها، لأنها تمكنه من معرفة الحقائق والأمور والإلمـــام بـــها، ورصـــد العلاقـــات الإنسانية المتغيرة، وتقويم أفعال الناس والظواهر الاجتماعية، واستيعبات كنـــه الأحداث الخطيرة، واختيار الأسلوب الناجح لتجاوزهـــا، وتجعلـــه يتصـــرف تصرفاً حسناً حين يقع في مأزق صعب. فالطيبة بلـــدة تجـــاور الصحـــراء، وتعتمد في اقتصادها على الزراعة البعلية، ورعي الماشية، وحين حل فيـــها القحط، وتكرر مرات عدة متزامناً مع الأمراض الفتاكة، لـــم تفقـــد رشـــدها، وعملت على تجاوزه بفضل وعيها الذي مكنها من اختيار الأســـلوب الملائـــم لمواجهة هذه الكارثة والتغلب عليها، وذلك حين لجأت إلى الصيـــد كأســـلوب لتأمين لقمة العيش، وإلى الشجاعة كعامل معنوي لتقوي روحها، وتشد أزرهـــا "مثلما اختارت الطيبة أن تكون في هذا الموقع على أطـــراف الباديـــة، فقـــد اختارت الصيد والشجاعة، وعرفت كيف تتحمل كل ما يواجهها مـــن مكـــاره

وصعاب"[1]. وهذا الأسلوب الذي اتعبته لمواجهة المحنة القاسية التي حاصرتها وهددتها بالانتهاء، كان حسنا ومفيدا وحقق الغاية المرجوة منه، فلولا الصيد لفشلت في تأمين كفافها اليومي، وماتت جوعا، ولولا الشجاعة التي تحلت بها، لضعفت إرادتها، وخارت قواها ووقعت في شدق الفاجعة.

وحين عانت من قسوة المحل لأول مرة في حياتها، ورأت أنه يتكرر، بدأت تستعد له بحرص شديد، فلجأت إلى تربية الماشية، لتكون أداتها المعيشية الفعالة في تأمين لقمة العيش ومواجهة الخطر المحتمل ولذلك شرعت تهتم برعاتها اهتماما كبيرا فاق اهتمامها بأبنائها، لأن الرعاة هم العامل الوحيد الذي يحفظ لها حيواناتها التي غدت أملها الكبير في مواجهة الموت المنتظر، فالطيبة التي لا تستطيع أن تطعم أبناءها في سنوات المحل، بدأت تسرف فيما تعطي للرعاة[2].

إن اهتمامها برعاتها بشكل يفوق اهتمامها بأبنائها ليس تصرفا فجا خاليا من روح الأبوة والشعور بالمسؤلية، بل هو تصرف عقلاني فرضه الوضع الخطير، وهو إجراء إنساني ضروري غني بروح الأبوة، وهو نوع من اهتمام الآباء بالأبناء، لأن اهتمام الآباء الملحوظ بالرعاة حافز يدفع الرعاة إلى الاهتمام بالحيوانات التي ستنقذ الأبناء من الكارثة المحتملة حين يحل الجفاف في الطيبة ويدب الجوع في الأمعاء.

وحسن تصرف المكان الواعي يتجلى وقت الأزمة الصعبة، حين تتغير المفاهيم والسلوكيات، وتختلط الأمور وتتداخل، والطيبة حين حل الجفاف في ربوعها، وبدأت تعيش أياما شديدة القسوة، لم تعش مثلها من قبل، تجلى وعيها، وبدأت تتصرف بحكمة، فشرعت تهتم بأمور، وتكف نظرها

---

[1] منيف عبد الرحمن، ١٩٨٠ - النهايات، دار الآداب، بيروت، ط٢، ص ٤٧.

[2] المصدر نفسه، ص ١٤.

عن أمور أخرى، وهي تواجه الأزمة الصعبة لتواصل حياتها بكرامة وإبـــاء "فالطبية التي تعيش أياما صعبة مريرة،وتبحث عن طريقة لتواصـــل الحيـــاة، تتغاضى عن أشياء كثيرة بما فيها رعونة الشباب واندفاعهم إلى الصيد بهوس لم يتعوده أحد ،ولم يكن يميزهم من قبل"[1]. إن تغاضيها عن أسلوب الشـباب الطائش،وهوسهم في الصيد، دليل على وعيها للظرف الصعب الذي يعيشـــه البشر، وعلى سمو إنسانيتها، لأنها أدركت حال هؤلاء الشباب الذين لم يجـدوا أمامهم وسيلة تخلصهم من شدق الموت جوعا سوى الصيد، لذلك هبوا إلـــى الصحراء حاملين بنادقهم، وراحوا يصطادون الطيور بأسلوب لم يتبـــع مـــن قبل.

ووادي العيون الذي تميز بخبرة واسعة في معرفـــة البشـــر، وإدراك الدوافع التي اضطرتهم للمجيء إليه، لم تخف عليه حقيقة الأميركيين الثلاثـــة الذين وصلوا إليه في المرة الأولى، فقد وعى حقيقتهم، وشك في أمرهم، ولـــم يطمئن لهم، واستطاع بفضل حسن مراقبته لهم أن يميزهم عن كـــل البشـــر الذين وصلوا إليه قبلهم. "وادي العيون الذي تعود على مرور القوافـــل ورأى بشرا من أنماط كثيرة، كان الأميركيون الثلاثة بالنسبة له بشرا من نوع غـــير مألوف، نوع مختلف تماما، بطريقة حياتـــهم وتصرفاتـــهم، والأســـئلة التـــي يسألونها، ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر أبدا من المســـافرين الآخريـــن"[2] إن تصنيفه لهؤلاء الأميركيين في رتبة مختلفة عن البشر الذين عرفهم لم يكـــن ضربا من التوهم والعبث، لأنه لم يصل إلى هذا الاعتقاد إلا بعـــد أن عـــرف عن كثب طريقة حياتهم الغريبة التي كانوا يتبعونها في النوم والرياضة وفـــي

---

[1] المصدر نفسه، ص ٤٥.

[2] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٤ ـ التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١. ص ٤٧.

جمع الرمال في صناديق وكتابة أشكال ملونة غريبة عليها، وسمع منهم أسئلة غريبة تتعلق بالرياح والأمطار ومواعيد القوافل التجارية، وأسماء القبائل والمذاهب، مما جعله يتخذ ذلك الإجراء التصنيفي الذي لم يتخذه من قبل.

وكذلك تميزت موران[1] بوعي مكنها من التصرف بحكمة وقت الضرورة، فحين كانت تعاني من محن صعبة متواترة وسط الصحراء القاسية كالوباء الأصفر والجراد والمحل واقتتال أمرائها المائة على الأرزاق والأماكن، لم تكن تفقد رشدها، وتتصرف تصرفا طائشا يزيد من معاناتها، بل "كانت موران تحتال على المصاعب، أو تقاومها، بأن تبعث بأبنائها إلى الأماكن البعيدة بحثا عن الرزق، أو بأن تشجعهم على استعمال القوة لدفع الذين يريدون مزاحمتها على رزقها[2]" إن اختيارها لأحد هذين الأمرين منطقي، إذ لا يمكنها ان تتشبث بأبنائها لتقدمهم لقمة سائغة للمصيبة التي تعاني منها، لذلك كانت تشجعهم على السفر إلى البلدان البعيدة، ليؤمنوا رزقهم، ولينقذوا أنفسهم من الخطر المنتظر، أما حين يداهمها الغزاة من المناطق المجاورة فقد كانت تحمس أبنائها، وتشد من أزرهم، وتدفعهم إلى مقارعة المعتدين الطامعين بأرزاقها، ودفعهم عن حياضها، ولذلك ظلت بفضل اختيار أحد هذين الأمرين في وقته المناسب تتجاوز محن الحياة الصعبة.

وحين أصبحت عاصمة السلطنة الهديبة ظلت تتمتع بذكائها واتزانها، وتتصرف تصرفا حسنا يدل على نضج شخصيتها الإنسانية. فكانت تخفي حقيقة ما يجول في خاطرها، وتعامل الغريب معاملة خاصة تناسب الغاية

---

[1] قبل أن يستعيدها السلطان خريبط من بني سحيم، ويضم إليها المناطق التي استولى عليها بالقوة.

[2] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٩ - تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ط١، ص ٣٣١.

التي جاء من أجلها "وإذا كانت موران ... تخشى الغرباء منذ وقت بعيد، فقد تعلمت كيف تبقى رصينة، لا يظهر عليها ما يعتمل في داخلها، ولا ما تفكر فيه، وتعلمت أيضا أن تقوم بواجب الضيافة تجاه هؤلاء، حتى إذا تأكدت من الأسباب التي دفعتهم إلى المجيء تتصرف وفق ما تمليه عليها أخلاقها وعاداتها، الذين جاؤوا بحثا عن الرزق الحلال .. أصبحوا أبناء لهذه المدينة، لا يعرفون غيرها، ولا يفضلون غيرها عليها، وبمرور الوقت اكتسبوا عادات المدينة وملامحها، أما الذين جاؤوا لأسباب أخرى فقد كان لدى موران من القوة النفسية والعناد ما تجعلهم يتركونها دون أسف ودون تفكير بالعودة إليها مرة ثانية"[1]. إن الصحراء شخصية إقليمية متميزة شديدة الغموض، لا يعرف أحد كنهها وأسرارها، وقد صاغت شخصية موران وفق شخصيتها الإقليمية المتميزة، فاكتسبت موران ملامح الصحراء بكل تفاصيلها وأخلاقها، لذلك تمكنت من إخفاء ما يجول في خاطرها من أمور وخواطر. واستطاعت أن تعامل الغرباء معاملة سليمة تناسب الغاية التي جاؤوا من أجلها، فالغريب الذي يأتي من أجل العمل الشريف تغمره بالرعاية و الأمان مثل أي واحد من أبنائها، فيشعر بالسلام، ويتأقلم مع محيطها، ويعيش حياتها الجماعية، ويغدو جزءا من كيانها، أما الذي يأتي من أجل غاية أخرى فإن موران بفضل تعنتها تغلق ذاتها عليه، وتنظر إليه نظرة قاسية تمتلئ بالكره حتى تجبره على الرحيل عن ديارها دون أن يشعر بأي ندم.

وبفضل هذا الوعي تمكنت من معرفة خبايا النفوس، وإدراك الحقائق بأسلوب مناسب، ولذلك امتنعت عن الانجراف وراء الإغراءات والخدع والأوهام "فموران هذه المدينة الخادعة تعرف كيف تلتقط الإشارات، وكيف

---

[1] منيف، عبد الرحمن، بادية الظلمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ٤٩٦.

تتحرى الوقائع، تقرأ الكراهية في العيون.. وتميز المشاعر والمواقف، فلا تقوى الابتسامات أو الكلمات الكبيرة على تغيير قناعتها"[1].

تتجاوز المحن التي تعاني منها بتصرف تراه مناسبا في حينه إلي أن تعددت تصرفاتها، ففي المرة الأخيرة حين عم بطش السلطان، واستبدت حاشيته، وتسلط السيف عل رقاب الناس، أدهشت البشر وهي تواجه هذه المحن بلجوئها إلي الصمت الذي رأته مناسبا في المرحلة "موران التي تعودت خلال السنين الماضية أن تواجه المصاعب والأحزان بالصبر والسخرية أو بأن يرتحل بعض أبنائها، لا يعرف كيف اكتشفت سلاحا جديدا بدا بنظر الكثيرين أقوى وأشد مضاء: الصمت.. في الأسواق، في البيوت، في المساجد، وهو صمت مضن شديد الوطأة"[2]. إن لجوءها إلى الصمت لمواجهة بطش السلطة في هذه المرحلة الخطيرة ليس انتكاساً في إرادتها ومؤشراً على ضعفها، وهوانها، لأن الصمت في هذه الحالة سلاح معنوي فعال لمواجهة السلطة التي تشرع في ملاحقة الأحرار، وتمعن في فصل عنق كل ثوري يتفوه بكلمة حق، فيحد من بطشها، ويجنب الكثيرين خطر الانزلاق إلى حافة المقصلة.

وكذلك مدينة العوالي اتسمت بالوعي، وقد استمرت في متابعة الحياة التي ألفتها حين ضمها السلطان خريبط إلى سلطنته، تمكنت من معرفة حقيقة الحكام ونفاقهم بفضل الخبرة التي اكتسبتها من تجربتها مع الحكام والأمراء الذين حكموها، ولذلك لم تكن تثق بكلامهم، وإغراءاتهم ووعودهم الكاذبة "فالعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار وامتلأت ذاكرتها بكلمات الحكام .. ورأت الملوك والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل ملك وقائد

---

[1] المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

[2] المصدر نفسه، ص ٤٩٨.

الموت والحصار والجوع، فقد كانت متأكدة أن الذين يحكمون خاصة من يأتون حديثا لا يصون دائما ما يقولونه .. والوعود التي يطلقونها هي لكسب الوقت وإلهاء الناس أكثر مما هي جدية أو للتنفيذ"[1]. إن عدم ثقتها بكل ما يقوله الحكام لم يكن ظنا بهم، وإنكارا لأعمالهم، بل هو نتيجة تجربتها القاسية معهم، لأن هؤلاء الحكام الذين حكموها كانوا من طبيعة واحدة، لكونهم اتبعوا أسلوبا واحدا أساسه الخداع بالاغراءات والوعود الجميلة، ليرسخوا نفوذهم، ثم تناسوا أقوالهم ووعودهم للشعب.

٢- **الوفاء:** إن الوفاء ملكة إنسانية عظيمة، تدل على نبل السلوك الإنساني وأصالته، وتقدس أواصر العلاقات الإنسانية السامية، وهي عامل فعال يجبر الكائن الإنساني على أن يبقى مخلصا للإنسان الآخر الذي ارتبط معه بعلاقة إنسانية أصلية إذا تعرض لأمر مكروه. وإنسانية المكان تتجلى بوفائه لأبنائه رغم التحولات المتعددة التي طرأت عليه، وغيرته تغييرا جذريا، ووفاؤه لأبنائه في ظل هذه الحالة المؤلمة هو سلوك إنساني رائع، ومؤشر على الوعي الأخلاقي الذي يتميز به. فبلدة الطيبة حين حل الجفاف بها، وغيرها تغييرا شاملا، بقيت أصيلة كما هي ولم تغير مبادئها، وسلوكها، وحافظت على خيط الرحم الذي يربطها بأهلها الذين صاغت شخصيتهم الجماعية، وحفظت مكانتهم في قلبها، "فالطيبة لم تتنكر، ولم تتغير، وظلت وفية لكل شيء فيها، ولكل إنسان عاش أو مر في يوم من الأيام"[2] لأن "الطيبة لها وجه واحد وليس لها وجهان، كما أنها لن تتخلى عن أبنائها حين يسقطون أوحين يضيعون"[3]. إن سمو إنسانيتها هو العامل الفعال الذي أبقاها

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٠٠.

[2] النهايات، ص ٥٠.

[3] المصدر نفسه، ص ١٧٣.

مخلصة لأبنائها، ومتمسكة بهم، وكلل سلوكها بهذا الوفاء الفذ. فلو كانت نزعتها الإنسانية هشة ورخوة، ولا يخضع سلوكها لوازع إنساني، لتخلت عن أبنائها حين سكنها المحل بكل يسر وبساطة.

وحران تميزت بالوفاء رغم التغيير العام الذي دهمها، فحين وصل إليها اثنان من أبنائها، وهما محمد السيف وعبد الله السعد، وكانا قد تركاها منذ وقت طويل، وظلا يرسلان لأهلهما الرسائل والدراهم، لم تجحد حقهما، وتتقاعس عن إكرامهما، بل أسرعت إلى استقبالهما استقبالاً لائقاً، وغمرتهما بحفاوة منقطعة النظير، وبقيت أصيلة "ولم تغير حران عاداتها، إذ ما كادت القافلة تصل حتى كان الناس في لقائها، وبأسرع مما قدر الرجلان، ومن النظرات الأولى غرقا في جو الأهل والأصدقاء"[1]. إن حسن استقبالها لهذين العائدين، وغمرهما بمشاعر الألفة والود، دليل على وفائها لأبنائها، وتمسكها بعاداتها الأصيلة المتجذرة في أعماقها التي تتميز بحس إنساني رفيع في ظل تغير الحياة التي تعاني منها معاناة شديدة الوطأة.

ومدينة موران لم تكن أقل وفاء لأبنائها من غيرها، فحين عاد عثمان العليان فجأة إليها بعد أن غاب عنها اثنتين وثلاثين سنة، وكان قد تركها، وعمره أربع عشرة سنة، وشرع يبحث عن أهله وأقاربه، لم يتعذب في البحث عنهم، إذ سرعان ما احتضنته، وجمعته بأهله وأقاربه "ولأن موران لا تنسى أبناءها .. سرعان ما وجد عثمان أقاربه"[2]، فعثوره على أهله بسرعة بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة التي أمضاها بعيداً عنهم، دليل على أن موران، لا تتناسى أبناءها، وتقطع صلتها بهم، بل تظل وفية لهم، وتحفظ ذكراهم مهما طالت غيبتهم وبعدت أماكن إقامتهم.

---

[1] النيه، ص ٢٩١.

[2] تقاسيم الليل والنهار، ص ٢٢٣.

٣-التعاطف: التعاطف سمة إنسانية حسنة تحد من أنانية الإنسان، وتهذب سلوكه، وتعلي شأن الإنسان الآخر، وتزيل مساوئه إذا كانت له مساوىء، وتجسد محبته، والشعور بالتعاطف يتبلور بحالتين تحددهما حالة الإنسان المعطوف عليه، فيشعر الإنسان بالحزن العميق على الحالة الصعبة التي آل إليها الإنسان الآخر، وبالغبطة على ما ينعم به الإنسان الآخر من يسر وهناء وفرح في الحياة. والأمكنة التي تحترم ذكرى أبنائها، والذين وفدوا إليها واحتضنتهم وظلت وفية لهم رغم قسوة الظروف الصعبة التي تداهمها، لابد أن تتعاطف معهم، وتشعر نحوهم شعورا يناسب الموقف الذي هم فيه، فتعاطف الأمكنة مع أبنائها هو الوجه الآخر لوفائها لهم. فالطيبة التي نظرت إلى عساف نظرة ازدراء وظلم،واتهمته بالجنون، ورفضت أن تزوجه امرأة من نسائها، حزنت عليه حزنا بليغا ما حزنته في حياتها قط حين لقي حتفه في الصحراء، وقد هبت كلها للمشاركة في تشييع جثمانه، وعبرت عن حزنها عليه تعبيرا غريبا لم يكن أحد من أبنائها يتصوره، إذ عم الحزن قلوب الناس، وخيم على فضائها، "فبدا أن الطيبة تبكي نفسها بشكل لم تفعله من قبل"[1]. إن تأثرها بوفاة عساف تأثرا منقطع النظير كان العامل الأساسي في التعبير الخارق عن حزنها الذي أحست به أثناء تشييع جثمانه، وهو إعلاء لمكانته السامية التي لم تدركها إلا بعد وفاته، وتعبير منها عن تعاطفها معه في المصير المؤلم الذي لقيه في الصحراء، وهذا دليل على شعورها الحاد بالإثم الذي ارتكبته بحقه، ومؤشر على روح الإنسانية السامية التي تتصف بها.

وكانت حران أكثر الأماكن شعورا بالحزن على فقدان الناس الذين آوتهم في أحضانها، لأنها فجعت بموت ثلاثة رجال جاؤوا إليها طلبا للعيش

---

[1] النهايات. ص ١٨٢.

وكسب الرزق، فالسائق الأرمني "آكوب" الذي وفد إليها في حلب" كان أصدقاؤه يتكاثرون باستمرار إلى أن أصبح جزءا من حران، وضرورة ملحة لها"[1]. وحين انتهي أجله، حزنت عليه حزنا شديدا مديدا لم تعرفه في حياتها من قبل "نامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل"[2]. وقد بلغت إنسانيتها مرتبة الروعة حين عدته مسلما، ولقنته مثل أى واحد من أبنائها، وسمته "يعقوب الحراني"[3] إن شعورها بهذا الحزن العميق على آكوب دليل على عظمة إنسانيتها التي تسامت على كل الاعتبارات الدينية، وتعبير ضمنى عن تعاطفها معه على الواقع الصعب المرير الذي عانى منه قبيل وفاته مع صديقه راجي بسبب منافسة رضائي والنقيب لهما.

وحين توفي "مفضي الجدعان" الطبيب الشعبي الذي جاء إلى حران من أحد الأماكن المجاورة لها، حزنت عليه حزنا شديدا وقد كان يداوي المرضى بالأعشاب والكي دون أي أجر، وكان يساعد الناس، ويقدم لهم خدمات مجانية، وحين انتهي أجله "حران كلها خرجت لوداعه"[4] وعم الحزن، وملأ فضاءها "فنامت تلك الليلة، وقد أحست أن أياما سوداء تنتظرها"[5]. إن خروجها الجماعي لتشييع طبيبها المحبوب دليل على شعورها بالحزن العميق عليه، وتعبير عن إحساسها النبيل بالحالة الصعبة التي عاشها بسبب الاضطهاد الذي مارسته دار الإمارة بحقه،وملاحقتها الدائمة له نتيجة إيعازات من الدكتور "صبحي المحملجي"" وتعبير عن تضامنها وتعاطفها معه لأنه مات غدرا، ولم ينصف.

---

[1] التوه، را ص ٤٣٦ – ٤٣٧.

[2] المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

[3] المصدر نفسه، ص ٤٧٠.

[4] المصدر نفسه، ٥٣٤.

[5] المصدر نفسه، ص ٥٣٤.

وقد تجلت إنسانيتها بتشييعها لابن الراشد سمسار الشركة الأميركية المستثمرة للنفط، والمقاول العقاري الكبير الذي وفد إليها في وادي العيون، واشترى قسما كبيرا من عقاراتها، وقد انضم إلى صف دار الإمارة والأمريكيين، ولعب دورا مباشرا في تأجيج معاناة أهلها،وحين لقي حتفه، تسامت إنسانيتها، وتناست مساوئه التي ارتكبها بحقها، وشعرت بالحزن الشديد عليه، وهي تقوم بواجبها الإنساني نحوه "فشيعت حران ابن الراشد بحزن وصمت"[1]. إن تناسيها لمساوئ ابن الراشد، وحزنها عليه وتشييعها لجثمانه، كل ذلك دليل على عظمة الروح الإنسانية التي تتحلى بها، وعلى الوعي الأخلاقي الذي يتسم به سلوكها، ويدل على تعاطفها معه، لشعورها بأنه ظلم نتيجة الحال النفسية الصعبة التي عانى منها قبيل وفاته[2].

وحران التي حزنت على فقدان هؤلاء الرجال، وتعاطفت معهم، فرحت في المقابل فرحا منقطع النظير بلغ حدا غير معقول، وهي تشارك "الدباسي" فرحته بعرسه"، جنت حران تلك الليلة، لم يبق أحد إلا وغنى، حتى المسنون غنوا"[3]. إن مشاركتها في عرس الدباسي، وفرحها اللا معقول به، يعبران عن تضامنها الصريح مع صالح الدباسي وتكريمها له، على موقفه النبيل الذي اتخذه منها في صراعه مع ابن الراشد.

ومدينة موران فجعت بوفاة المناضل السياسي "عثمان المصلح" الذي رفض الاعتراف، فعذبه سجانوه ثلاث ليال متواصلة، مما أدى إلى وفاته، وقد حزنت عليه حزنا عميقا، وظلت تمدحه، "فموران التي شيعته كما لم

---

[1] المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

[2] المصدر نفسه، را ص ٣٨٤.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

تشيع راحداً من أبنائها، ظلت تردد كلماته، وتشيد بصلابتـــه"[1]. إن تشـــييعها لعثمان المصلح بطريقة عظيمة لم تعرفها من قبل، واستمرارها فـــي تنـــاقل أقواله، وتمجيد إرادته المتينة كل ذلك يؤكد لنا مدى إحساسها البليـــغ بـــالواقع الأليم الذي عاشه عثمان، ويؤكد تعطافها، وتضامنها معه.

٤- **الشجاعة:** سمة حسنة في الإنسان، وذات أثر فعّال في ســـلوكه، لأنها تمده بطاقة معنوية هائلة تجنبه الوقوع في شرك التقاعس والتراخي فـــي أداء واجباته التي تتطلب إرادة صلبة، وتمكنه من الثبات في وجه الأزمة التي تحاصره، والتغلب عليها، وتجاوزها. وشجاعة المكان تتجسد بصمـــوده فـــي وجه المحنة القاسية التي يعاني منها، وبسعيه الدؤوب من أجل التغلب عليـــها، وتجاوزها بإصرار شديد، فالطيبة حين حل الجفاف في ربوعـــــها، وهزلـــت حيواناتها، وابتعدت الطيور، وتكرر فيها القحط متزامناً مع الأوبئـــة الفتاكـــة، وعانت معاناة شديدة، لم تكن تندب حظها، وتبكي أيامها المجيدة، بـــل كـــانت تكابر على المحن، وتعض على جراحها في مواســـم القحـــط والجفـــاف"[2]، وحين داهمها العدو الإسرائيلي الغاشم، لـــم تخـــر قواهـــا، وتتقـــاعس عـــن مقارعته، بل تحلت بالشجاعة إلى أبعد حد، وصمدت في وجهه، وحدت مـــن تقدمه "فبدت الطيبة غريبة المنظر وأشبه ما تكون لحظة من لحظات الحيـــاة الكبرى، اللحظة التي واجهت فيها العدو، قبل عشـــر ســـنين[3]، ومنعتـــه أن

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٩١ – الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ١٧٨.

[2] النهايات، ص ٥٠.

[3] زمن هذه اللحظة هو حرب حزيران (١٩٦٧) وهو زمن حكائي مسترجع انتهى حكيه في (١٩٧٧). را النهايات ص ١٨٣.

يتقدم، بعد أن فقد الكثير من جنوده"[1]. إن تحليها بالشجاعة، وهـــي تقـارع العدو بلغ مرتبة البطولة، وقد تمكنت بفضل هذه السمة الحسنة من الصمـــود في وجه المتصدي، ورده عن حياضها، لأن الشجاعة التي اتصفت بها وهـــي تجابه العدو مدتها بطاقة معنوية ساعدتها في تحقيق مالا يستطيع أن يحققـه كائن لا يعرف للشجاعة معنى.

وكذلك تحلت موران بالشجاعة وهي تواجه المحل والجراد والأوبئـة وظلم السلاطين الذين تعاقبوا عليها، وقد أكد "شـمران العتيبـي" أن مدينتـه واجهت محنا عدة تواترت عليها، وقد تغلبت عليها بفضل شجاعتها العظيمـة "هذي موران أبد ما تنسى..تتحمل، لكن أبد ما تنسى"[2]. فلو لم تكن تتصـف بالشجاعة لما استطاعت أن تتحمل كل ما مر عليها من تلك المحن الصعبـة. وشجاعة موران في قول شمران العتبي متداخلة مع سمة الذاكرة، وقد منحـها منيف هذه السمة في سياقين آخرين من المتن الحكائي لرواياته[3].

وبهذه السمات الإيجابية تجلى المكان شخصية إنسانية سامية، ولكونـه شخصية إنسانية سامية لمسنا فيه بعض الملامح الإنسانية الحسنة التي تمـيز بها، وتجلت في أكثر من موقف، وقد تجسدت هذه الملامح الحسنة من خـلال الأفعال المنطقية التي قام بها وقت الأزمة الشديدة التي حاصرته، فاســتطاع أن يحمي أهله الذين يحتضنهم، ويؤويهم من كل أذى عام تعرضوا له بفضـل وعيه الناضج وشجاعته، لأنهم كنهه، ووجوده نفسه، وتوطيدا للعلاقة الرحيمة التي تربطه بهم، لأنهم لم يتنازلوا عنه، ولم يديروا له ظهورهم في حياتـهم، ولذلك لم يكن يتوانى في التعبير عن وفائه لكل فرد يستحق الوفاء، ولم يتلكـأ

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٧٨.

[2] بادية الظلمات، ص ٥٢.

[3] انظر تقاسيم الليل والنهار، ص ٤٠٢، وبادية الظلمات، ص ٢٩٥.

في الوقوف إلى جانب كل واحد تعرض لظرف قاهر حيث شاركه محنته، وعبر عن حزنه العميق لما حل به من ضرر لا دور له بحدوثه. وهذه السمات لم تكن مندرجة في كل الأمكنة ما عدا الطيبة، ومووران. فوادي العيون لم يتميز بالوفاء والتعاطف والشجاعة لأن أهله رحلوا عنه، واجتث من جذوره، ولأن الراوي لم يتوغل كثيرا في تاريخه الاجتماعي قدر ما كان مهتما بالتمهيد لوصول الأميركيين. وحران لم تتميز بالوعي والشجاعة لأنها لم تحسن التصرف حين وصل الأميركيين إليها، وتصمد في وجه كل ما حل بها.

أما السمات الإنسانية السيئة (السلبية) التي اتسم بها المكان فهي:

١- **العجز:** هو سمة سلبية تدل على حالة ضعف تعتري المكان، فتضعف قواه، وإرادته، وتحد من قدراته ومعارفه، وتبلد إحساسه وشعوره، وتمنعه عن أداء واجباته نحو بشره، والإحساس بمعاناتهم. فالطيبة التي استطاعت صياغة شخصية بشرها الجماعية صياغة فذة، وزرعت فيهم الخصال الحميدة، وعلمتهم المحادثة بطريقة بدت في نظر أهل المناطق المجاورة عجيبة ورائعة، تعجز عن التعبير عما يجول في خاطرها من مشاعر وأفكار بطريقة سهلة وبينة، وإن حاولت أن تعبر عنها، يبدو تعبيرها غريبا وغامضا "إن الطيبة من أعجب الأماكن وأكثرها غرابة، لا تستطيع أن تفضح عواطفها بسهولة، حتى ولو أرادت أن تقول شيئا فإنها كثيرا ما تقول ذلك الشيء بطريقتها الخاصة، والتي قد لا تبدو مألوفة أو مفهومة"[1].

إن عجزها عن إظهار ما في أعماقها من عواطف وأفكار ومشاعر بطريقة سهلة نتج عن الحيرة التي غمرتها عقب وصول جثة "عساف" التي عثر عليها مختارها ورجال البادية، وهي لم تكن تعرف بعد حقيقة الأمر

---

[1] النهايات. ص ٩١.

الواقع، فامتلأت بالصمت، وراحت تتساءل بعينيها، لتعرف مـــا جـــرى مـــن مختارها المحنك الذي بدا تائها وضائعا وخائفا[1].

وعلى الرغم من أنها صمدت في وجه المحل، واستعدت له، وعضت على جراحها في السنوات التي تواتر عليها متزامنا مـــع الأوبئـــة والجـــراد عجزت عن تحمل هذه المصائب المتلاحقة لفقرها وقدراتها المحدودة "فالطيبـة التي تستطيع أن تطعم أبناءها أجزاء من لحمها، لا تقوى على مواجهة هـــذه المصائب سنة بعد أخرى بصدرها المكشوف وإمكانياتها المحـــدودة"[2]. إن عجزها عن تحمل هذه المصائب بشكل مستمر ناتج عن قلة إمكاناتها الماديـــة التي تمكنـــها مـــن مواجهـــة المصـــائب وتجاوزهـــا، لأن الإرادة الصلبـــة، والمعنويات العالية، وروح التفاني والتضحية بشكل مجرد لا تكفـــي لتحمـــل كوارث الحياة، ومصائبها بشكل متواصل عبر الزمان.

وحران حين اختيرت لتكون مقرا للشركة الأميركية المستثمرة للنفـــط في السلطنة الهدبية غيرها الأميركيون تغييرا شاملا، وهدموا بيـــوت أهلـــها الذين بنوا بيوتا لهم فوق التلال الغربية البعيدة نسبيا، رغبـــة منـــهم فـــي أن يظلوا بعيدين عن الأميركيين، وليتجنبوا ما قد يصيبهم لو سكنوا في غير هـــذا الموقع الذي اختاروه، وقد سميت بيوتهم حران العرب تمييـــزا عـــن حـــران الأميركان.

عجزت عن مقاومة موجات الوافدين الغرباء الذين قدموا إليـــها مـــن كل حدب وصوب طلبا للعمل لأن "حران العرب التي انتبذت مكانا قصيا فـــي محاولة لأن تبتعد، وتهرب مما يراد لها، لم تستطع أن تقاوم طويلا"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ر١ ٩٠ – ٩١.

[2] المصدر نفسه، ص ٤٨.

[3] التيه، ص ٣٦٨.

إن عجزها عن مقاومة الأمر الذي هربت منه لفترة طويلة من الزمان، نتج عن عدم تمكن بيوتها الطينية القليلة من استيعاب موجات هجرة الوافدين الغرباء التي اكتسحتها بشكل متواصل، فحين يصبح عدد البشر كبيرا يفوق العمران لابد أن يتوسع العمران، ويتغير ليتحمل العبء الجديد.

وعلى الرغم من أنها تتميز بسمو إنسانيتها، ورقة مشاعرها، وبقدرتها الفذة على التعاطف مع البشر، لم تتمكن من تخفيف غضب رجل واحد جاء إليها في أحد الأيام "فحران التي شعرت بالحزن إلى درجة التعاسة لم تستطع أن تخفف غضب الرجل"[1]. إن عجزها عن تخفيف غضب الرجل ناتج عن لحظة الضعف التي سيطرت على أهلها حين شاهدوا "هاجم" وهو في حالة من الذهول الشديد، وشعروا أنهم غير قادرين على متابعة النظر إلى وجهه، وتذكروا في الوقت نفسه المصير المؤلم الذي لقيه أخوه "مزيان"، فاستغرقوا في هذا الكم المتراكم من الأسى واللوعة، ولذلك لم تتمكن حران من فعل أي شيء يخفف من هياج الرجل[2].

ورغم انشغالها بأمر هاجم، وشعورها بالحزن العميق عليه، وفشلها في التخفيف من غضب الرجل، وإقناعه في قبول دعوتها، لينام في أحد بيوتها،وتفكيرها بهما طول الليل، لم تتمكن من معرفة حقيقة ما حصل لهما بعد ذلك". فحران التي نامت متسائلة حزينة تلك الليلة، بعد أن تركت هاجما والرجل الذي معه لكي ينامَا في المسجد، لم تعرف ماذا حصل بعد ذلك"[3]. لقد عجزت عن معرفة ما جرى لهاجم والرجل الذي يرافقه بسبب اعتقالهما تنفيذا لأوامر دار الإمارة التي نصت على احتجازهما في مربط الجمال[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

[2] المصدر نفسه، را ص ٢١٩ - ٣٢٠.

[3] المصدر نفسه، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

[4] نفسه، را ص ٣٢٤.

و"موران" التي برعت في كشف خبايا نفوس النـــاس مـــن النظـــرة الأولى، ومعرفة كنه مشاعرهم ومواقفهم، لم تتمكن من الشـــعور بالراحـــة، ومعرفة الدوافع التي دفعت الدكتور صبحي المحملجي الذي جاء من حـــران ليعالج السلطان خريبط إلى مغادرتها في اليوم الثالث لوفاة السلطان "فمـــوران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت، لم ترتح، ولم تفهم لماذا غـــادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث"[1]. إن عجزها عن معرفة الأســـباب التـــي دفعت الدكتور صبحي المحملجي إلى العودة إلى حران بســـرعة نـــاتج عـــن اعتقادها بان الواجب الأخلاقي يفرض عليه أن يبقى فترة أطول ليقـــف إلـــى جانب صديقه الأمير "خزعل" بحكم الصلات والمودة التي تربطهما[2] ، وناتج أيضا عن انشغالها بالوضع الراهن الذي تعيشه بعد وفاة الســـلطان خريبـــط، وترقبها لما سيحدث بعد وفاته من حوادث لا تعرف عنها أي شيء.

وحين بدأ النفط ينبثق من ربوع السلطنة الهدبية، وشرعت البواخـــر الضخمة تصل إلى ميناء حران، لتنقل آلاف الأطنان من النفط كل ساعة إلـــى مختلف بلدان العالم، ظلت موران غارقة في حياتها، ولم تتمكن من الإحســـاس بهذا الوضع الجديد الإحساس المطلوب" فبعد أن بدأ النفط يتدفـــق، وأخـــذت تصل البواخر إلى حران كل يوم لتحمل آلاف الأطنان كل ساعة، لـــم تحـــس موران بذلك إلا إحساسا غامضا"[3]. إن عجزها عـــن الإحســـاس بـــالوضع الراهن الجديد إحساسا مناسبا ناتج عن استغراقها في حياتـــها القديمـــة التـــي ألفتها، لأنها ظلت تنتظر المطر، والقوافل التجارية[4].

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٥ – الأخدود، المؤسســـة العربيـــة للدراســـات والنشـــر، بيروت، ط١، ص ١٠.

[2] المصر نفسه، را ص ١٠.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٧.

[4] المصدر نفسه، را ص ٢٧.

وهذه المدينة التي تغيرت تغيرا عاما شمل مختلف مستويات الحياة،وفتحت فيها مجالات متعددة للعمل، فاحتضنت عددا هائلا من الغرباء الذين وفدوا إليها من أجل العمل، لم تتمكن من تأمين عمل لابنها "صالح الرشدان" الذي ألفته وأحبته، وقالت من خلاله ما لا تستطيع أن تقوله مباشرة أو علنا[1] "فلم تستطع موران أن تستوعبه، أو أن تؤمن له العمل رغم أنها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون إليها من كل مكان"[2]. إن عجزها عن تأمين عمل له ناتج عن مهنة الحذو التي يمارسها، هذه المهنة بطلت، وتلاشت بعد وصول السيارات والقلابات التي ملأت شوارعها وحلت محل الدواب في النقل، وعن نقل سوق الحلال الذي كان يحذو فيه دواب الناس إلى العوالي[3].

٢- **التحول:** يعد التحول سمة سلبية في شخصية المكان وسلوكه، ومشاعره، ومبادئه، إذا كان تحولا تراجعيا أي من حالة حسنة إلى حالة سيئة[4]، ولذلك يكون دليلا على حالة ضعف في شخصية المكان. فالطيبة التي تميزت بوعي ناضج مكنها من التصرف تصرفا حسنا في الوقت المناسب، وتحلت بخصال حميدة، لم تتوفر في الأماكن التي تجاوزها، تعرضت للتحول تعرضا فظيعا "وإذا كانت الطيبة كثيرة الصبر والتسامح،

---

(١) المصدر نفسه، را ص ٣٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

(٣) المصدر نفسه، را ص ١٣٨.

(٤) ويعد التحول إيجابيا إذا تطورت الحالة من السلبية إلى الإيجابية، وقد وجدنا حالتي تحول إيجابي لمكانين ثانويين في روايات عبد الرحمن منيف، لم نعمد إلى ذكرهما لعدم اتساقهما مع السمات الإيجابية للمكان، را نقاسيم الليل والنهار، ص ٢١٧ - ٣٠٢.

وتغفر للغرباء مثلما تغفر لأبنائها، فإنها تعرف الغضب في مواسم الجفاف، وهذا الغضب الذي قد يأخذ شكلا هينا في بعض الأوقات، يتحول في النهاية إلى جنون لا يطيقه، ولا يتصوره أحد"[1]. إن تحولها من حالة إنسانية سامية حسنة تميزت بالصبر والغفران إلى حالة إنسانية سيئة تتصف بالغضب الجامح، ناتج عن تأثرها بالقحط الذي حل بربوعها، وغير معالم حياتها، ولأنها تملك قدرة محدودة على التحمل، وامتلاك الإرادة، وحين يكون الوضع الذي تعاني منه، قاسيا إلى درجة تفوق قدراتها، لابد أن تضعف قدرتها، وتلين إرادتها، فتتبدل مشاعرها تبدلا سيئا، فتشعر بالتوتر والنزق والغضب الذي يزداد حدة بتعاقب الزمان.

و"موران" التي عرفت بذكائها، وحسن تصرفها، وبراعتها في الاحتيال على المصاعب ومقاومتها، كانت تتصرف تصرفا طائشا، لم تكن تتصرف مثله من قبل حين تقسو عليها الحياة، وتتراكم المصاعب على كتفيها إلى درجة كبيرة لا تحتمل. "فموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع، حين يستبد العطش أو يزيد على حد معين، وحين ينهكها الجوع، فلا تقوى على احتماله أكثر من ذلك، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت، فتقتل نفسها، وتقتل غيرها إلى أن تجد توازنا بينها وبين ما حولها"[2]. لقد استطاعت أن تحافظ على اتزانها، وتصمد في وجه المصاعب التي حاصرتها بفضل إرادتها الصلبة، ومعنوياتها العالية التي كانت تفوق حجم المصاعب التي تعاني منها، وحين اشتدت وطأت المصاعب عليها، وفاقت معنوياتها وإرادتها، وقدراتها المادية البسيطة، لم تتمكن من حمل هذا العبء الثقيل، مما جعلها تفقد اتزانها، وتتصرف تصرفا قاسيا.

---

[1] النهايات، ص ٥١.

[2] الأخدود، ص ٢٧.

٣- الخوف: سمة سلبية تعتري المكان نتيجة شعوره بخطر موهوم غير مرئي، أو حقيقي ملموس، يولد في أعماقه انفعالا دائما أو عابرا حسب ماهية الخطر الذي يشعر به، وإذا هيمن الانفعال بالخطر على نفسية المكان وسلوكه، وحد من نشاطه الحياتي، ودفعه إلى القيام بأفعال وضيعة، يكون جبنا، ولذلك يغدو التخلص من الخوف ضربا من الرجولة والشجاعة، فالطيبة على الرغم من أنها امتازت بشجاعة عظيمة بلغت حد البطولة وهي تقارع العدو الإسرائيلي الغازي، وترده عن حياضها، وصمدت في وجه المصاعب والمحن، بكل إباء وكبرياء، كانت بشكل دائم تخاف من أن تصيبها سنوات الجفاف "فالطيبة التي تعتمد على المطر والزراعة، وعلى ذلك الشريط الضيق من الأرض الذي ترويه العين، تحس في أعماقها خوفا دائما أن تأتي سنوات المحل"[1]. إن خوفها من قدوم سنوات القحط، هو خوف من خطر غير مرئي محتمل الوقوع، وهو ناتج عن طبيعة اقتصادها البدائي الذي يعتمد على الزراعة البعلية ورعي الماشية، وعن قلة ينابيع الماء، ولذلك يمكننا أن نعد خوفها طبيعيا، لأنها مازالت تعيش تحت رحمة قوانين لم تتمكن من ضبطها، وتسخيرها لخدمتها.

و"حران" حين اختيرت لتكون مقرا وميناء للشركة الأميركية المستثمرة للنفط في السلطنة الهديبية، ووسع ميناؤها ليتمكن من استقبال البواخر العملاقة التي بدأت تصل إليها بشكل مستمر، بدأت تشعر بالخوف ينتابها كلما وصلت باخرة إلى مينائها. "فمع وصول كل باخرة جديدة، تهتز حران، تمتلئ بالمخاوف"[2]. إن خوفها، هو خوف من خطر ملموس لأن كل باخرة تصل إلى مينائها تحمل بضائع وأشياء غريبة، وصناديق كبيرة الحجم،

---

[1] النهايات، ص ١٤.

[2] التيه، ص ٣١٥.

لا يعرف شيء عن حقيقتها، والمجالات التي ستستعمل فيها، إضافة إلى أن البواخر كانت تحمل أعدادا هائلة من البشر الذين أصبحوا يزدادون زيادة كبيرة تفوق قدراتها العمرانية، وهو خوف طبيعي لمجتمع بدائي لم يألف الآلة بعد، ولا يمكنه أن يتخلص من هذا الخوف الذي ينتابه بيسر وسهولة.

و"موران" حين قرر السلطان "خريبط" فجأة أن يسافر إلى جهة لم يفصح عن مكانها، وأقام فيها مدة طويلة من الزمان، شعرت بالخوف، لأنها لم تتمكن من معرفة مكان سفرته، وأسباب غيبته الطويلة، ولذلك راحت تتساءل عنه أول الأمر باهتمام شديد، ثم بخوف "فموران لم تتوقف عن التساؤل بفضول، ثم بخوف عن غياب السلطان، كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب نتيجة التقدير أو الأخبار التي تصلها"[1] إنها لم تشعر بالخوف، وهي تتساءل عن غياب السلطان إلا بعد أن طالت غيبته، وكثرت تقديراتها حول غيابه، لأنها كانت تتغير باطراد تبعا لتعدد الأخبار التي تصلها تباعا، وهو خوف طبيعي ناتج عن أمر يهمها ويشغل بالها، ولا تعرف في الوقت نفسه شيئا عن صحته، ويمكنها أن تتخلص منه حين تعرف مكان السلطان، والأسباب التي جعلت سفرته تطول.

٤- القسوة: سمة ممقوتة، تكون آنية أو دائمة، تعتري المكان نتيجة تصرفه تصرفا غير إنساني وأخلاقي، يتنافى مع مبادئه الإنسانية السامية، وسلوكه الأخلاقي، هذا التصرف الخالي من الروح الإنسانية، والمجرد من القيم الأخلاقية، يقلل من إنسانية المكان وأخلاقيته، ويحط من شأنه، ويصغره في أعين بشره وقلوبهم، ويجعلهم ينظرون إلية نظرة قاسية، لأنه يولد في نفوسهم مشاعر السأم والكره، ويملأ حياتهم بالعذاب والقهر والأسى فالطيبة رغم تميزها عن بقية القرى التي تجاورها بالروح الإنسانية والقيم الأخلاقية

---

[1] بادية الظلمات، ص ١٣١.

التي تحلت بها، وتجسدت بعلاقاتها مع أبنائها والغرباء الذين وفدوا إليها، لم تكن تخلو من تصرفات قاسية تتنافى مع السمعة العطرة التي اشتهرت بها، ولذلك تشابهت مع القرى الأخرى بتلك السمات القاسية، لأن "الطيبة مثل كل القرى والبلدان الأخرى التي تشبهها، من حيث القسوة والسخرية، ورغبة التندر، واختلاق بعض الأكاذيب، وفي اغتياب الناس"[1]. إن هذه السمات السيئة التي تتصف بها، وتجعلها تتشابه مع القرى المجاورة ليست سمات تحمل صفة الديمومة، بل هي سمات عرضية آنية، مارستها في بعض الحالات على رجل واحد من أبنائها هو "عساف" لأنه كان يسلك سلوكا غريبا غير مألوف في مجتمعها، فقد كان لا يبالي بعاداتها وتقاليدها، وكان قليل الاهتمام بمظهره، وشغوفا بالصيد، ومحبا لكلبه الذي كان يسحبه، ويتجول به في شوارعها، ولذلك راحت حين تشاهده بهذا الوضع الذي لم تألفه، وترفضه، تتقول عليه، وتهزأ به[2].

و "حران" التي وصل إليها الأميركيون وغيروها تغييرا عاما لتناسب مصالحهم في نقل النفط الذي يستخرجونه من ربوع السلطنة الهديبية، ووفد إليها الغرباء من أماكن متفرقة طمعا بالعمل وجمع الثروة وملؤوا أرجاءها بالصخب والضجيج، لم تكن رحيمة وأليفة مع هؤلاء البشر، إذ جعلت حياتهم قاسية إلى درجة لم يكونوا يتصورونها أو يتحملونها "فحران التي انشغلت وتغيرت منذ الساعة التي وصل إليها الأميركيون، عرفت كيف تشغل الناس، فتجعلهم يركضون كالكلاب، لا يعرفون إلى أين، ولماذا، وأغرقت الجميع في هموم لم يتصوروا أنهم سيتعرضون لها"[3]. إن هذه القسوة الفعالة التي

---

[1] النهايات. ص ٣٢.

[2] المصدر نفسه، ر ا ص ٣٣.

[3] النيه. ص ٣٦١.

تمارسها خاصة في فصل الصيف الذي يمتد طويلاً على البشر الذين وفـــدوا إليها مستمدة من طبيعة جوها القاسي المرتفع الحرارة والعالي الرطوبة الـــذي أثر في هؤلاء البشر كلهم، وجعل حياتهم شديدة القسوة وجحيما لا يحتمل[1] ، ومستمدة أيضا من طبيعة الحياة الاجتماعية الجديدة التي خلت من أية ضوابط إنسانية وأخلاقية.

و"موران" حين أصبحت عاصمة للســـلطنة الهدبيـــة، وكـــثر فيـــها الأميركيون، والغرباء، وبدأ النفط يتدفق في ربوعها، راحـــت تتغـــير تغـــيرا مستمرا، شمل مختلف مناحي الحياة، وقد تجلى تغييرها بشكل أكثر وضوحـــا وقسوة بعمرانها الهجين المتعدد الأنماط الذي لا يمـــت لأرضـــها وتاريخـــها وتراثها بأية صلة تذكر، والذي انتشر اثر الحركة العمرانية الضخمـــة التـــي بدأت فيها، فبدت " مدينة لا ترحم نفسها، ولا ترحم ساكنيها"[2]. إن القســـوة التي تمارسها بحق نفسها وبحق أهلها ناتجة عن الحركة العمرانية الضخمـــة التي تقوم فيها، لأن أنقاض ومخلفات العمران القديم الذي يهدم، بدأت تـــتراكم بشكل عبثي على أطرافها المترامية، فتبدو كالأحشاء المتناثرة وســـط المـــدى الصحراوي الذي يحيط بها، ولأن أهلها حائرون، يتطلعون حولـــهم بلوعـــة واسى ورغبة في أن يخلصوا من الوضع المؤلم الذي يعـــانون منـــه معانـــاة شديدة الوقع ليحسوا بوجودهم، وليعيشوا الأمان الذي فقدوه في مدينتـــهم، لأن "الحياة الحية مربوطة بمناخ وجودي، يثبت شعور الأمن لدى الســـاكن، وأن أعماق نفسية ساكن المدينة، هي إدراك للمدينة"[3].

---

[1] المصدر نفسه، را ص ١٨٥، ٣٦٢ - ٣٦٥.

[2] المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

[3] مجموعة من الباحثين: ١٩٧٧، الإنسان والمدينة في العالم المعـــاصر، تـــر: كمـــال الخوري- وزارة الثقافة، دمشق، ص ٣٠٤.

وتغير هذه المدينة القاسية لم يكن تغيرا ماديا فحسب، بل تغيرت تغيرا إنسانيا شمل علاقاتها الأليفة مع بعض أهلها الذين أحبتهم وآوتهم في أحضانها، وقد بلغ هذا التغير درجة عالية من القسوة، بتدني علاقاتها مع "صالح الرشدان" الذي ألفته، وأحبته حين لم تستطع أن تؤمن له عملا، رغم أنها كانت تحتضن الآلاف من البشر الغرباء كل سنة إذ قست عليه قسوة فظيعة حين أنكرته، وغيبته من ذاكرتها" إذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من أيام، وأحبت شتائمه وطريقته في التعامل، فإنها ما لبثت أن تجاهلته، ونسيته"[1]. إن هذا السلوك اللاإنساني الذي مارسته عليه بتجاهلها له، وتغييبه من ذاكرتها هو انعكاس مباشر لطبيعة حياتها التي تتغير بتواتر مستمر، ولتدني روحها الإنسانية السامية، واستغراق أهلها في أمور حياتهم الجديدة التي لم يألفوها بعد.

وهذه المدينة التي أصبحت مركز اهتمام كبار أثرياء العالم، وتجاره، ومقاوليه، بلغت قمة القسوة حين راح الفقراء الذين لا يجدون كفافهم اليومي، يتساقطون كأوراق الشجر في شوارعها، وأمام عماراتها الضخمة التي لم ينته بناؤها موتا من الجوع والمرض "قبدت موران في ذلك الشتاء القاسي، وكأنها مدينة أخرى: نزقة، يابسة، عديمة الرحمة، لا تطيق أحدا، ولا أحد يطيقها"[2]. إن موت عدد كبير من الفقراء هو الذي جعلها تبدو شديدة القسوة وفاقدة الروح الإنسانية إلى درجة العدوانية، لأن هؤلاء الفقراء لم يلقوا رعاية من السلطة التي كانت غارقة في همومها خارج الحدود، ولا رعاية من الأغنياء الذين اغتنوا في السنوات الأخيرة، وقد كانوا يكرهون الفقراء كرها

---

[1] التيه، ص ٣٩٤.

[2] بادية الظلمات، ص ٥٣٨.

شديدا وما لقوه من اهتمام بعض أغنياء موران القدامى لم يستطع أن يرد عنهم الموت[1].

و"باريس" المدينة التي تعد رمز الحرية والعدالة والثورية، والتي تحتضن الأحرار والسياسيين من جميع أنحاء العالم، لم تكن أكثر رحمة وإنسانية من الأماكن السابقة، بل كانت في نظر الذين وفدوا إليها مدينة متكبرة قاسية وغير أليفة "باريس هذه المدينة الأهلة إنها بمقدار ما تعطي نفسها، تبقي بينها وبين الغرباء مسافة، ولا تتردد بعض الأحيان أن تكون جافة، وشديدة الخيلاء، خاصة حين يتأبط الغرباء أحزانهم وهمومهم، ويدورون في الشوارع"[2]. هذه المدينة تتعامل مع الغرباء الذين يفدون إليها وفق معايير محددة، تراها مناسبة وضرورية، وهذه الطريقة الخاصة في تعاملها مع الغرباء الذين لا يعرفون مثل هذه المعايير في مدنهم، تجعلها تبدو في نظرهم غير أليفة وقاسية.

وبهذه الملامح الإنسانية، يتجلى المكان شخصية إنسانية تتصف بالسلبية، لأنه عجز عن تحقيق ما يجب أن يفعله، ونتيجة شعوره بالخوف من الأحداث التي تحيط به، وتغيره تغيرا سيئا مما أدى إلى تلاشي إلفته، وجعله مكانا عدوانيا شديد القسوة والدمامة.

والسمات السلبية التي ذكرناها تميزت بها الأمكنة الثلاثة الطيبة وحران وموران باستثناء وادي العيون، لأن الحكي الروائي عن هذا المكان انتهي في الربع الأول من خماسية مدن الملح منذ أن بدأت في وادي العيون عملية التنقيب عن النفط، ثم انتقل الراوي بحكيه إلى حران.

---

[1] المصدر نفسه، را ص ٥٣٩.

[2] الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ٣٠٤.

وهذه السمات السلبية لا تنفي السمات الإيجابيـــة التـــي تمـــيز بـــها المكان[1]، لأن الملامح السيئة هي الوجه الآخر للملامح الحسنة، والإنســـان يتكون من هذين الوجهين، فلا وجود لإنسان يتمتع بوجه واحـــد مـــن هذيـــن الوجهين على الإطلاق.

وعبد الرحمن منيف بهذه السمات الحسنة والسيئة اســـتطاع تجســـيد المكان تجسيدا إنسانيا موضوعيا، وقد تجلت هذه السمات الإنسانية التي تمـــيز بها في روايتي النهايات، ومدن الملح فقط، لأنه في هاتين الروايتين انتقل مـــن التعبير عن المكان بالصيغة الفردية التي استخدمها في رواياته التـــي ســـبقت تينك الروايتين إلى التعبير عن المكان بالصيغة الجماعية، وهذا الانتقال فـــي تقديرنا هو تطور في تعامله مع المكان. لأن المكان ليس فردا فقـــط، وإن دل الفرد على الجماعة، وجسد رؤية المؤلف الدالة عليها، والمكان الروائي بقـــدر ما فيه من جماعة متفاعلة مع محيطها فإنه يمثل الحياة خير تمثيـــل، ويعـــبر عنها، ويدل عليها، ويجعلها صاخبة في فضائه بشكل أعمق، وأكـــثر ثـــراء وجمالا.

---

[1] ثمة سمات إنسانية تميزت بها الأمكنة عمدنا إلى عدم ذكرها. لأن بعضها لم يندرج مع السمات التي ذكرناها كالطاعة، والنظر، والإصابة بالمرض، والتعود، را. تقاسيم الليل والنهار: ص ١٧، وبادية الظلمـــات، ص ٤٥٨، ٤٩٧، ٥٠٦، ولأن بعضـــها درسناه في كتاب آخر مثل سمة (الانتظار) التي استخدمها عبد الرحمن منيف لقفلـــة الحكي الروائي عن المكان، وثمة سمة إنسانية وحيدة تجلت في رواياته قبل روايتيه (النهايات ومدن الملح) عمدنا أيضا إلى عدم ذكرها، لأن السياق الذي ذكرت فيه يدل على المخاطبة والتحول والقسوة، را. قصة حب مجوسية، ص ٩١ - ٩٢.

الفصل الثانى
تجليات أنسنة مكونات المكان

سبق وذكرنا أن البشر أحيوا أمكنتهم وألفوها، لأنها ذواتهم وكياناتهم فظلوا متوحدين بها رغم التحولات الكبيرة التي تعرضت لها، مما جعلها تكتسب ذواتهم الإنسانية، ولأن المكان أنسن، وأصبح ذاتا عاقلة، وهو بحد ذاته مكتظ بعناصر الطبيعة من حيوانات، وطيور، وأشجار، وأشياء، وبظواهرها من قمر، ومطر، وسماء، وريح، وفصول السنة، أنسنت الطبيعة (بعناصرها وظواهرها) التي كونت المكان، وارتبط الإنسان معها بصلة لا شعورية، فحملت ذاته العاقلة، ومشاعره السامية، وإحساسه الحاد، فأحبها الإنسان، وألفها وعاملها معاملة إنسانية سامية، وتعاطف شعوريا معها في بعض الحالات، وعدها في حالات كثيرة شبيهة به، وفي حالات أخرى أفضل منه، وأكثر إنسانية ووعيا. وهي بالمقابل أنست به، وألفته، وأحست بالمحن القاسية التي تعذبه، وتجعل حياته جحيما لا يطاق، فعبرت بطريقتها الخاصة عن إحساسها بمعاناته، وتعاطفها معه، وسخطها على الذين يمارسون تعذيبه، وإذلاله، وتشويه الحياة الكريمة في مكانه. وجاءت أنسنة مكونات المكان في الخطاب الروائي بثلاث صيغ فنية.

١- مخاطبتها خطابا إنسانيا:

إن الخطاب الإنساني يشترط أن يكون المتخاطبان عاقلين، ليتمكن متلقي الخطاب من استيعاب ما يقوله مرسل الخطاب، وإلا كان الخطاب بينهما نوعا من الوهم أو الجنون، ولأن عناصر الطبيعة وظواهرها عاقلة مثله، خاطبها الإنسان بسمو ورقة، كأنه يخاطب إنسانا يحبه، ويجله ويعظمه، فإلياس نخلة أحب بلدته "الطيبة" المتميزة بكثرة البساتين والأشجار وحين ساعد والده في زراعة الأشجار شغف بها، وارتبط معها بخيط رحمي، شده إليها، فتماهى معها لوجهها النضر المزدان بالأشجار التي هي عنصر من عناصر الطبيعة، وتوحد معها روحيا، وغدت جزءا من ذاته، لكنه لم يستطع أن يتابع حياته فيها، لأن أهل بلدته قطعوا أشجارهم ليزرعوا عوضا عنها

القطن، مما جعلها تخسر وجهها الأخضر، فلم يعد يطيق البقاء فيها، فذهب إلى الجبل القريب منها، وفيه تعايش مع الطبيعة، وتآلف مع عناصرها،وكان يخاطبها، وينقل إليها مكنونات أعماقه، وقد حكى لمنصور عبد السلام عن هذه الأيام التي قضاها في الجبل حين التقيا في إحدى عربات القطار "لو سألتني عن الحيوانات لقلت: إن لها طباعا غريبة .. وقد أعطيت لعدد منها أسماء جميلة وكنا نتحدث من بعيد، كنت أفهمها، وكانت تفهمني"[1]. إن عزلة إلياس نخلة في الجبل دفعته إلى الاستغراق في الطبيعة، فراح يتأمل عناصرها، ويراقبها عن كثب، فأوجد نوعا من التعاطف معها، لأن الطبيعة هي ذاته التي يعيها، ولذلك أمسى يخاطب الحيوانات.

وخطابه لها هو نوع من الاحتيال على العزلة التي يعيشها في الجبل، ووسيلة لتفريغ أساه ولوعته على فقدان الأشجار التي زرعها، ولإملاء الفراغ الذي يشعر به، ولإشباع الدافع الاجتماعي الذي بدأ يضج في أعماقه.

وخطابه للحيوانات تجلى بشكل أكثر بروزا في خطابه لحماره سلطان، فبعد أن ترك الجبل، اشترى حمارا أبيض اللون، وسماه "سلطان"، وبدأ يتنقل به بين القرى، ويبيع نساءها أشياء نسائية متعددة، وكان يعامله معاملة حسنة رقيقة، كأنه يعامل إنسانا عاقلا، وحين كان في قرية المغيريب في دار "حنة" التي تزوجها فيما بعد، أراد أن يمضي بحماره بسرعة حتى يصل إلى قرية المحربة قبل غروب الشمس، لكن الحمار لم يمتثل لرغبته، فجلس وحدثه برقة كأنه يحدث طفلا "جلسنا وطال جلوسنا، وقد حاولت أكثر من مرة أن أتحدث معه بهدوء، قلت له ننام في القرية، وهي لا تبعد عنا أكثر من ساعة، قلت ننام في الطاحونة، وهي لا تبعد أكثر من ساعة من الناحية

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٧٩ - الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ص ٥٣.

الثانية، قلت تستريح يوم غد كله، فلا نبيـــع ولا نشـــتري"[1]. إن معايشـــته لحماره سلطان جعلته بشكل لا شعوري يتعاطف معـــه ويمنحـــه مشـــاعره، ويتحدث معه برقة ورجاء، وكأنه يتحدث مع إنسان عاقل. والخطاب الموجـه من إنسان عاقل إلى حيوان ليس أمرا غريبا ومستهجنا، لأن طبيعة المواقـــف التي تفرض نفسها على إنسان يمارس عملا يعتمد على حيوان، تجـــبر هـــذا الإنسان أن يخاطب حيوانه خطابا إنسانيا يختلـــف محتـــواه حســـب طبيعـــة الموقف.

والأشجار التي هي مؤشر على ذات إلياس، لم تكن في منـــأى عـــن خطابه الإنساني فبعد أن تشرد في المدينة، وعمل في عدة مهن، رجـــع إلـــى الطيبة، وعاد إلى ذاته (الطبيعة)، فزرع أشجارا في قطعـــة أرض صغـــيرة اشتراها، وحين أقبل الربيع، راح يخاطب أعواد الأشـــجار بعنويـــة وحنـــان كبيرين "كنت أجلس عند كل عود، أنظر إليه بلهفة مجنونة، أحدثه، أســـأله إن كان يشكو من عطش أو عذاب .. كنت أسأل دون تعب حتى إذا جاء الـــدفء رأيت كثيرا من الأعواد النحيلة تحمر عقدها وتتكور .. أما الأعواد التي لـــم تظهر براعمها، فقد حزنت لأجلها كثيرا .. تحدثـــت معـــها بصـــوت عـــال، أشجعها على أن تبدأ الحياة"[2]. إن مخاطبته لأعواد الأشجار الصغيرة ناتجـــة عن تعاطفه معها، لأنها ذاته التي افتقدها أول مرة، وهو لا يريـــد أن يفقدهـــا مرة ثانية، ولذلك راح يخاطبها بتلك الروح الرقيقة، وكأنه يخـــاطب إنســـانا معذبا.

و"الروي" بطل "قصة حب مجوسية" الذي هام بحب امرأة متزوجـــة "ليليان" خلال رحلة استجمام في أحد المتنزهات الجبلية، لم يستطع محادثتـــها،

---

[1] المصدر نفسه: ص ١٧٣، وثمة مواضع عديدة، را ص: ٦٧، ٧٥، ٧٨، ٨٠.

[2] المصدر نفسه، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

ليعبر لها عما يجول في أعماقه، من مشاعر جياشة، فراح يتأملها من بعيد، ويراقب تحركاتها خلسة كيلا يكتشف زوجها أمره. وحين وقف في شرفة الفندق محتميا بشجرة صغيرة كانت تشكل حاجزا بينه وبين زوجها، لينظر إلى محبوبته، وهي تتناول طعام الغداء في صالة الطعام، خاطب تلك الشجرة التي هزها طفل بيده بلهجة توسل من أجل أن تبقى لتحميه من زوجها الذي بان وجهه "قلت للنبتة الخضراء التي عادت لتستقر: أيتها الشجرة المباركة فيكل الأوقات، ارتفعي سدا بيني وبين الذين يريدون قتلي"[1]. إن الحماية التي منحتها الشجرة للراوي، وهو يتمتع بالنظر إلى محبوبته، كسانت الدافع اللاشعوري الذي حرضه على التعاطف معها ومخاطبتها خطابا إنسانيا برقة ممزوجة بالرجاء والأمل. والإنسان في حالات كثيرة حين يكون مستغرقا في الأشجار، ويعلق عليها آماله، يجد نفسه، يخاطبها بشكل عفوي كأنه يخاطب إنسانا آخر.

و"رجب إسماعيل" السياسي الثوري الذي أدرك أن شعبه يضطهد، وتسلب كرامته، وحريته، وأحس بواجبه الإنساني الأخلاقي نحو أهل بلده، سعى إلى إصلاح فساد النظام الحاكم المستبد في بلده الواقع في شرق المتوسط، لكن السلطة الحاكمة زجت به في السجن، وأنهك السجانون جسده بالعذاب الوحشي، حتى أشرف على حافة الموت، فاضطر إلى الاعتراف بترك العمل السياسي، وخرج من السجن. وحين كان في زنزانته يتلوع من شدة العذاب صادف نملة سوداء، فخاطبها برقة وهو يقدم لها زاده البسيط "لن أتركك الآن، ستبقين هنا ثلاثة أيام، أنت ضيفي، بعد ثلاثة أيام يمكن أن

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٧٩ – قصة حب مجوسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط٣، ص ١٣.

نتحدث"[1]، وحين رآها تبتعد عن رغيف الخبز، حملـــها، ووضعـــها فـــوق الرغيف، وقال لها: "ألا تعرفين العادة أيتها النملة المقدسة، يـــا ضيـــف الله؟ الضيافة ثلاثة أيام، قولي عني ما تشائين"[2] إن إحساسه بالوحدة والعذاب فـــي هذا المكان الموحش اللاإنساني دفعه إلى أن يمنح ذاته للنملـــة، لأنـــه أحـــس بقسوة الحياة التي تحيط بها في هذا المكان، فتعاطف معها، وخاطبها برقـــة، محاولا إكرامها وحمايتها، وإلحاحه على استضافة النملة لمدة ثلاثة أيام، وهـو في هذه الحالة السيئة في مكان عدواني، مؤشر على سمو النزعة الإنســـانية السامية في ذاته، وعلى سلوكه الاجتماعي المتجذر فـــي العـــادات العربيـــة الأصيلة.

وبعد أن خرج من السجن، سافر إلى فرنسا على متن باخرة ركـــاب يونانية تدعى "اشيلوس"، وقد احتضنته الباخرة، وغمرته بالحرية التي حـــرم منها في بلده، فأعجب بها وألفها، واتخذها صديقة له، وراح يخاطبها خطابـــا إنسانيا بلهجة سامية ممزوجة بالأسى والعذوبة، وقد تنوع نص خطابه حسب محتوى الحدث الذي يسترجعه من ذاكرته، وحسب الحالة النفسية الآنية التـــي يعيشها، ولأنها أصبحت صديقته التي لم تر السجن في حياتها، أخبرها عـــن أثره قائلا: "أشيلوس يا صديقتي، يا صديقتي، أنت لم ترى السجن، لو رأيتـــه يوما لتغير صوتك"[3]. إن الحرية التي منحتها له جعلته يأنســـها، ويتعـــاطف معها، ويتخذها صديقة له في رحلته إلى غرب المتوسط، فشـــرع يخاطبـــها خطابا إنسانيا، ليخبرها عن السجن الذي هو أسوأ وأفظع مكان في بلده، هـــذا المكان العدواني الذي سيصيبها - إن رأته - بالذهول والدهشة، ويغير نفسيتها

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨١ - شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ص ٨٠.

[2] المصدر نفسه، ص ٩٨.

[3] المصدر نفسه، ص ٨٠.

من شدة الاضطراب الذي سيعتريها، ويهز كيانها، فهو يريد أن يؤكد لـــها أن السجن في بلده يجعل الأشياء الجامدة،تهلع من فظاعته، وقســـوته، ووحشـــية العاملين فيه.

وقد بلغ التعاطف بينه، وبينها حد المشاركة والاتحاد في الفعل، ولأنـه يسعد بالتعاطف معها، طلب منها أن تستمر في سيرها وتبتعـــد "اهـــتزى يـــا أشيلوس، وابتعدى، أنا أبتعد، أبتعد"[1]، إن شعوره بالحرية والأمان والـــدفء والسلام الذي بدأ يغمره، وهو على متن الباخرة، منذ أن شرعت تبتعـــد عـــن شواطئ بلده، كان الدافع الشعوري الذي دفعه إلى الاندماج معها، ومخاطبتـــها خطابا إنسانيا، فطلب منها أن تسرع، وتبتعد عن بلده الذي حـــرم فيـــه حـــق الحياة الإنسانية الكريمة ليصل إلى شاطئ بلد الحرية في أقرب وقت ممكن.

لقد كانت أشيلوس لرجب إسماعيل جسرا عبر عليه من شـــاطئ بلـــد الظلم والاستبداد والعبودية إلى شاطئ بلد الحرية والعدالـــة، لذلـــك خاطبـــها مرات عدة[2]، وتغنى بفضلها، وأراد أن يغنى، وينظم الشعر لها[3]، "ليعكـــس أهميتها عنده، فهي وسيلته في الهروب من الشرق وســـجونه نحـــو الغـــرب الليبرالي .. وهي أول إرهاصات الغرب بحريتـــه وإنســـانيته التـــي يفتقدهـــا الشرق"[4].

كما أن أنستها بتعاطفه معها لعطاءاتها الخيرة التي جعلته يخاطبـــها خطابا إنسانيا عذبا، أضفت على جو الرواية المحزن روحا إنسانية سامية، لـــم تتجل في بلد رجب إسماعيل. فجسدت قسوة بلده الواقع في شـــرق المتوســـط

---

[1] المصدر نفسه، ص ٧٩.

[2] إضافة إلى ما ذكرناه، را ص ٧٨، ٩٦، ١٠٣.

[3] المصدر نفسه، را ص ٨٠.

[4] الغزي، تامر: ١٩٧٧ – البنية والدلالة في شرق المتوسط، شـــهادة الكفـــاءة فـــي البحث، جامعة تونس، كلية الآداب، منوبة، ص ١٠٣ – ١٠٤.

الذي يمعن في استبعاد الناس واستلابهم، ولم تأت أنسنتها مجرد نـــوع مـن الهذيان لإنسان معذب، اضطهد، وفقد إرادته فقد "وظفت الباخرة أشيلوس فـي شرق المتوسط لتجعل عنصرا مساعدا على مجابهة المكان الذي يحيل عليـــه عنوان الرواية، فكانت بمثابة المكان الذي يتحدى المكان أو يصارعه"[1].

وزكي نداوي السياسي المعذب بهزيمة حزيران، بعد أن ترك الجســر الذي بناه بمساعدة رفاقه ليعبروا النهر كي يصلوا إلى ساحة المواجهـــة مـع العدو لأنهم أجبروا على تركه، وطلب منهم الادبار، لينجوا بأنفســهم، شـعر بالهزيمة تملأ كيانه، وهو في غمرة هذا الشعور المؤلم أحس بالجسر قد شـعر بالهزيمة أيضا، فخاطبه قائلا: "أنت لا تهزم، نحن الذين هزمنـــاك .. ونحـن الذين هزمنا"[2]، إن الحب الذي منحه للجسر حين كان يبنيه، وهو يعلق عليـه آمال النصر، جعله يشعر بالأسي واللوعة على فراقه، فتعاطف معه، ومنحـه مشاعره المكتظة بلوعة الهزيمة. ولذلك أحس بأن الجسر قد هزم لأنـــه رآه من ذاته المهزومة، فخاطبه خطابا إنسانيا لينفي عنه وطأة الشعور بالهزيمة.

والكلب وردان الذي رافق زكي نداوي في رحلة الصيد قرب الحـدود تلقى خطابات إنسانية من صاحبه، وكان نص الخطاب الكلي المرســل إليـه طويلا ومتنوعا، إذ تميز محتواه بالإجلال والإكرام والازدراء والاحتقـار[3]، ولأن الهزيمة جوهر المادة الروائية في رواية "حين تركنا الجسر" رأينا مـن المناسب أن نذكر ما يتوافق وهذه الأزمة الصعبة. فمما قاله زكي لـوردان، "يجب أن نتعود شيئا واحدا يا وردان .. لو سألتني أي شيء يجب أن نتعـود

---

[1] ثابت، محمد رشيد: ١٩٩١ – روايات عبد الرحمن منيف أشكالها ودلالتها، شـهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب، منوبة، ص ١٠٠.

[2] منيف عبد الرحمن: ١٩٩٠ – حين تركنا الجسر، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر، بيروت، ط٥، ص ١٣٧، وراص ١١٤، ١١٦.

[3] المصدر نفسه، راص ٨، ١٠، ١٣، ٣٥، ٣٦.

لقت لك دون انتظار أن لا تنهزم"[1]، إن الألفة التي امتدت بين زكي ووردان دفعته إلى لتعاطف مع كلبه، فمنحه ذاته المهزومة، فبان الكلب مهزوما من خلال ذات صاحبه، ولأن زكي نداوي يسعى إلى التخلص من وزر الهزيمة التي تؤلمه، وتعذبه، بين لكلبه ضرورة تجنب الهزيمة.

والعجوز "أم الخوش" التي تاقت لعودة ابنها "الخوش" الذي غاب منذ فترة طويلة، كانت وهي في رحلة انتظارها له، تجوب وادي العيون طيلة النهار، وتسأل عنه كل من تصادفه، ولم تتوان عن محادثة الأشجار والحيوانات وسؤالها عن ولدها "كانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي .. تتحدث مع الأشجار والحيوانات، وتسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئا من أخباره"[2]. إن تلهف العجوز لعودة ابنها، دفعها إلى أن تهيم على وجهها، وتترقب عودته، وفي رحلة بحثها عنه استغرقت في الطبيعة ومنحتها مشاعرها الإنسانية، فرأتها من خلال مشاعرها المكتسبة إنسانا، ولذلك خاطبتها خطابا إنسانيا لعلها تقول لها شيئا عن الخوش الذي أضناها بغيابه الطويل.

وما نلاحظه في محتوى نص هذا الخطاب الذي أرسله البشر إلى عناصر الطبيعة ومظاهرها، أن معانيه اقتصرت على التعبير عن الحزن العميق المتغلغل في أعماق البشر الذين خاطبوا الطبيعة خطابا إنسانيا نتيجة المعاناة القاسية التي يعيشونها في أماكنهم التي تعددت أنماط الحياة فيها، فهذا الخطاب ليس مجرد نوع من الهذيان لهؤلاء الناس المعذبين الذين يعانون من وطأة الحياة، بل هو تعبير عن رغبتهم التواقة للخلاص من شدة ما يعانون

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٣٧.

[2] التيه، ص ٥٨.

منه، لأنهم لم يجدوا أحدا في أماكنهم أحس بمعاناتهم، وواســـاهم، وبمـــا "أن الذات الواحدة في نظرهم قادرة على أن تحل في ظواهر فردية عديدة، فإنـــها يمكن أن تحل في ذوات أخرى. وتمنحها من طبيعتها لكـــي تضيفـــها تلـــك الذوات الأصلية إلى خصائصها"[1]. لذلك إلتفتوا إلى الطبيعة، وناجوها برقـــة وعذوبة نتيجة سمو نزعتهم الإنسانية التي هي في المحصلة النهائيـــة نزعـــة الرواتي عبد الرحمن منيف.

فهذا الالتفات ليس ضربا من التوهم أو الخيال أو المستحيل، لا يمكـــن أن يقع في الحياة اليومية، بل هو أمر ممكن الوقوع إن لم يكـــن واقعيـــا لأن الإنسان حين يكون مستغرقا في الطبيعة يجد نفسه بشكل عفـــوي يخاطبـــها، ويناجيها، ويبثها مشاعره، وكأنه يخاطب إنسانا وفيا يحبه، ويفرح بلقائه.

٢- تبلور نزعتها الإنسانية:

إن الطبيعة التي خاطبها البشر المعذبون، ومنحوها ذواتـــهم العاقلـــة، وخصالهم الإنسانية السامية، لم تكن بلهاء، لا تعي خطابهم، أو صماء أصمـت أذنيها عن سماع خطابهم، أو صلداء لم تحس بهم، بل كانت عند حسن ظنهم.

حيث اكتسبت مشاعرهم، وأحســـت بمعاناتـــهم، وتعـــاطفت معـــهم، وعبرت بطريقتها الخاصة عن صدى انفعالها بمحتوى خطابهم، وعن تأثرهـــا بالواقع المفجع الذي يحيط بهم، ويعانون منه معاناة شديدة القسوة في أماكنهم.

ولأن الطبيعة التي صاغت شخصية المكان، تتكـــون مـــن عنـــاصر متعددة هي الحيوانات، والطيور، والنباتات،والأشياء، ومن ظواهـــر متعـــددة هي السماء، والقمر، والمطر، والرياح، سنبين تجليات أنســـنة كـــل عنصـــر بشكل منعزل عن العنصر الآخر.

---

[1] الحميدي، د. أحمد جاسم: ١٩٨٧ - البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيـف. دار الأهالي، دمشق، ط١، ص ٤٥.

فسلطان حمار إلياس نخلة لم يكن حيوانا في نظر صاحبه، بل كـــان إنسانا يحس، ويفرح، لأن إلياس يعتقد "أن للحمير ولكل جنس الحيوان أرواحا مضيئة تشتعل بالحنان والرغبة"[1]، وقد أحس بهذا الاعتقاد حين أخذ حمـــاره من قرية المحربة بعد أن تركه فترة من الزمان "عدت إلى المحربة بســـرعة، حيث تركت الحمار لأحضره،ونبدأ العمل .. ما كـــدت أرى الحمـــار حتـــى أنكرته تماما، كان ضعيفا مهزولا، ولم ينم منذ وقت طويـــل، وفـــي زاويـــة الحاكورة، حيث كان يقف، ووجهه إلى الجدار بدا لي حزينـــا، وهـــو يمســـح وجهه بالجدار، تقدمت نحوه بهدوء، لا أريد أن يراني، ومثلمـــا كـــان يفعـــل دائما، أحس بشيء، رفع رأسه، عب الهواء، حرك أنفه أكثر من مرة، ثم بـــدأ يلتفت، لقد أحس بوجودي. وفي لحظة تغير كل شيء، تحـــــرك فيـــه الـــدم، ضرب الأرض بحوافره نهق فبدت أسنانه بيضاء لامعة، كأنه يضحـــك مـــن الفرح .. وما كاد يراني حتى سمعت صوتا ضعيفا أقرب إلى البكاء يمتلئ بـــه صدره، وبدأ يدور حول نفسه من الفرح، ثم تهاوى علـــى الأرض، ومـــرغ جسده على الجانبين بالتراب، كأنه إنسان يسجد إلى الأرض ويقبلـــها"[2]، إن هذا الوضع السيئ الذي آل إليه نتيجة افتقاده لألفة إلياس ولمعاملتـــه الحســـنة الملأى بالرعاية والعطف والحنان التي كان يغمره بها، جعلـــه يعـــبر عـــن غبطته حين رأى صاحبه إلياس قادما إليه بعد غياب طويـــل - والحيوانـــات التي تألف صاحبها تعاف نفسها الأكل والشراب، وتصاب بالـــهزال والســـأم حين يتركونها لسبب ما - وهذه الغبطة التي شعر بها هي انعكـــاس مباشـــر لفرحة الياس التي شعر بها حين رآه بعد أن تركه فترة من الزمـــان، وحيـــن شاهده بوضع قاس، تعاطف معه، ومنحه مشاعره الملأى بفرحة اللقاء، فـــرآه

---

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٧٨.

[2] المصدر نفسه، ص ٧٧ - ٧٨.

من خلال هذه المشاعر التي منحها له، ولذلك أحس بأن حماره فرح بلقائـــه، وعبر عن فرحته بطريقته الخاصة.

و"فرس" والد زكي نداوي حين مات صاحبها، رفضـت أن يمتطيـها أحد، وحزنت عليه حزناً شديداً إلى درجة الموت "فبعد أن مات أبي لم يستطع أحد أن يركب فرسه، كادت تموت بعده، ولولا أن أخي أبعدها عـــن البيـت لهلكت كانت تصهل بتلك الطريقة الحزينة، وكأنها تنعيـــه"[1]. إن إحســاس الفرس بافتقاد صاحبها الذي ألفته، لأنه كان يعاملها برفق وسمو ومحبة مثلمـا يعامل زوجته[2]، أثر في نفسيتها، وبدل سلوكها، وجعلها تتعاطف معه، وقـــد عبرت عن تعاطفها معه، برفضها لأي إنسان حاول أن يمتطيـــها، وحزنـــها الشديد عليه بذلك الصهيل الذي لم تصهله من قبل. وتعاطف الفـــرس مـع صاحبها هو تعاطف الراوي "زكي نداوي" الذي عبر عـــن افتقـاده لوالـده، وحزنه عليه من خلال تصرفات الفرس. فحين رأى فرس والده، ترفض كـل إنسان يحاول أن يمتطيها، وسمع صهيلها الذي لم يكن يســـمعه مـــن قبـل، تعاطف معها، ومنحها مشاعره الحزينة، فرأى سلوكها وحزنها مـــن خـــلال مشاعره التي منحها للفرس.

و"غصن البان" الحصان المحبب إلى قلب الســلطان "خزعـل" كـان ضمن مجموعة الخيول التي أرسلوها إليه من موران حين كان يمضي شـــهر العسل في مدينة بادن بادن الألمانية، وقد مات هذا الحصان حزناً على وفـــاة السلطان بعد بضع ساعات فعند "الظهر رأى عدد من الحرس غصـــن البـان يغادر الاسطبل، كان يمشي هادئاً نحو القصر، توقف عند الادراج، تطلع إلـى فوق، دار حول القصر، كان يمشي بهدوء، ورأسه يتشمم الهواء، دار مرة ثـم

---

[1] حين تركنا الجسر، ص ١٠٧.

[2] المصدر نفسه. را ص ٣٢.

أخرى، تطلع إلى فوق، ثم عاد بهدوء أيضا إلى الاسطبل، وقبل الغروب مات غصن البان"[1]. إن وفاة غصن البان حزنا على صاحبه السلطان خزعل، هو تعبير مباشر عن حزن الحرس على موت سلطانهم، فحين تمكن غصن البان من الخروج من الاسطبل بسبب انشغال أهل القصر كلهم بوفاة السلطان واتجه نحو مبنى القصر، تعاطف الحرس معه، ومنحوه مشاعرهم الحزينة، وحين مات فسر موته من خلال مشاعرهم التي منحوها له.

وفي تقديرنا أن موت غصن البان هو تعبير عن موقف الراوي الذي جسد قسوة النظام الحاكم الذي تلا نظام السلطان "خزعل" ليس على البشر فحسب بل على الخيول حين أرسلوها من بيئتها المحلية الصحراوية إلى بيئة غريبة شديدة البرد، لتموت فيها.

و"كلب" عساف الفهد، لم يكن كلبا، بل كان إنسانا حاول إنقاذ صاحبه من الخطر، حين تعرضت للعاصفة في الصحراء، ثم دافع دفاعا مستميتا ليرد عنه أذى النسور حتى مات فوقه في نفس المكان، ولما وصل أهل الطيبة لنجدة عساف "كان عساف مدفونا بالرمل .. لم يكن يظهر إلا رأسه .. وفوق الرأس تماما كان الكلب رابضا .. وكان الجزء الأكبر من جسد الكلب مدفونا بالرمل أيضا، لكن بطريقة غريبة .. كان يشكل سياجا حول جسد عساف، خاصة رأسه .. كان يحتضنه .. عساف مات قبل الكلب. ولابد أن بعض الطيور .. أحست وعرفت بذلك، وجاءت لتأخذ نصيبها منه .. لكن الكلب، وفي محاولة لحماية عساف صارعها حتى صرعته، لقد مزقت رأسه بمناقيرها لتصل إلى عساف، وفيما هو يدافع عن نفسه، وعن عساف، تهشم.. وعساف لابد أن يكون قد قام وسقط عدة مرات .. والكلب حين رأى عساف

---

[1] منيف، عبد الرحمن: ١٩٨٩ - المنبت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١. ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

يسقط قام فوقه .. لابد أنه حاول إنقاذه بشكل أو آخر"[1] إن إحساس الكلب بالخطر الذي داهم عساف دفعه إلى التعاطف مع صاحبه في الأزمة الصعبة التي تعرض لها، فحاول إنقاذه أول الأمر، وحين لم يتمكن من إنقاذه، بعد أن دافع عنه دفاعا مستميتا، احتضنه بجسده، وفداه من أجل أن يحميه من أي أذى، وبذلك بلغ تعاطفه مع عساف حد المشاركة في الفعل (الموت) "فالكلب كان ظهيرا لعساف، ومناصرا له، ارتبط الاثنان معا في الحياة والموت، وموت عساف، كان إيذانا بموت الرديف الآخر الذي استشهد دفاعا عن عساف الميت"[2]. وهذا التعاطف الكامل الذي بذله الكلب لصاحبه بلغ بفعل المشاركة في الموت درجة الروعة في الجمال.

و"الجمال" التي كانت مربوطة بسور الفسحة الصغيرة التي اتخذت أول سجن في حران، حين شعت بالحالة الصعبة التي يعيشها المسجونون، حزنت عليهم حزنا بليغا "فالجمال التي كانت لا تتوقف عن المضغ .. وهي تتحرك، وتستدير بين فترة وأخرى بدت أكثر حزنا من أية جمال أخرى، كانت تدير ألسنتها وحلوقها،وكأنها تشتم، وتنظر إلى كل ما حولها بحقد"[3]. إن إحساس الجمال التي تطل على السجن بالحزن على المسجونين، هو نتيجة استغراق الرجل الغضوب الذي كان يرافق "هاجم" برؤية هذه الجمال، حيث تعاطف معها، ومنحها مشاعره وحزنه على هاجم ومزيان، وحقده على دار الإمارة التي لم تنصف هاجما وأخاه مزيان، فبدت هذه الجمال المطلة على سور السجن فقط حزينة حاقدة.

---

(1) النهايات، ص ٩٤.

(2) الدعموري، ناجي: ١٩٨٠ – حين تركنا الجسر، وزارة الثقافة. بغداد. ع ١٠٤. س ١٥، ص ١٥٨.

(3) التيه، ص ٣٠٥.

و"الغزلان" التي تعيش في أماكن تجاور الصحراء، لم تكن في منأى عن إحساسها بالبشر، فالغزال الذي كان في بيت ابن نفاع، مات حزنا في نفس اليوم الذي مات فيه مفضي جدعان "اقترب الغزال كثيرا من مفضي وتشممه .. وفي الليلة ذاتها مات الغزال"[1]، إن موت هذا الغزال يتفق وموقف الراوي من الوقائع التي رافقت موت مفضي الجدعان فقد أبان فيه تعاطفه معه ومع كل الطبقة الشعبية في حران التي وقعت تحت سطوة الأميركيين، وقسوة دار الإمارة، والانتهازيين الذين استغلوها استغلالا فظيعا كما أن موت الغزال حزنا على مفضي الجدعان، هو إكرام له لأنه قدم للناس في حران خدمات دون أي مقابل.

و"الغزلان" التي مرت مصادفة بالقرب من عين فضة، وسمعت مطربها سعد الجربان الذي يجعل الناس يركضون نحوه حين يسمعون صوته العذب، أنست أهل عين فضة، وأصبحت من حيواناتهم الأليفة "إن شلعة من الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة في إحدى الليالي، وحين سمعت سعدا يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخاف، ولا تجفل من البشر"[2]، إن استئناس الغزلان بأهالي البلدة بعد أن سمعت صوت سعد الجربان هو نتيجة تعاطف الناس الذين كانوا يسمعون صوت سعد الجربان مع الغزلان، فحين شاهدوها تقترب منهم، وهم يصغون لغناء سعد، منحوها مشاعرهم، وفسروا اقترابها من خلال المشاعر التي منحوها لهم. ويبدو أن هذه الغزلان لم تلق أية مضايقة أو أذى منهم خاصة وهم فرحون، ومنتشون بصوت سعد، لذلك شعرت بالأمان، وبدأت تأتي مساء كل يوم إلى بلدتهم، إلى أن ألفتهم، وباتت جزءا من حيواناتهم الأليفة.

---

[1] التيه، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤.

[2] بادية الظلمات، ص ٢٠.

وما نلاحظه في إنسانية هذه الحيوانات المتعددة (حمار، كلب، حصان، جمال، غزلان) التي تنتمي إلى البيئة المحلية، أنها لم تكن مجرد بهائم اقتصر وجودها على الناحية الحسية، بل ذابت ماهيتها الحيوانية، واكتسبت ذات الإنسان العاقل، فخرجت عن وظيفتها المعروفة، وقامت بدور إنساني هو الإحساس بمأساة البشر، والتعاطف معهم، ومشاركتهم المصير المؤلم في بعض الحالات، لأن "الحيوان لديه مقدرة معينة على التجريد، إذ يستطيع أن يتخلص من الانطباع الحسي الواحد، ليدرك أشكالا وجسوما وإيقاعات، فالتصوير القديم الذي كان يرى أن عالم الحيوانات يكاد ان يكون قاصرا على أحاسيس عشوائية لا معنى لها، قد أصبح في ضوء تقدم بحوث علم السلوك بمعزل عن أي أساس"[1].

وأن الطابع العام الذي شمل تعاطف الحيوانات مع هؤلاء الناس هو التعبير عن الحزن-باستثناء غزلان عين فضة- وهذا الحزن العام إن دل على شيء فإنما يدل على قسوة الواقع الإنساني الذي عاشه هؤلاء الناس في أماكنهم بسبب ترهل الواقع الإنساني فيه، وانحطاط سلوك الناس، وتلاشي قيمهم الإنسانية، وانحدار أخلاقهم.

وبتعاطفها مع هؤلاء المعذبين تجلى الواقع الإنساني في النص الروائي أكثر رحمة من الواقع الإنساني الذي عاشه هؤلاء الناس في أماكنهم، لأنهم بقوا وحيدين في أزمتهم، وما أحس أحد بهم قط، ومجابها له في الوقت نفسه.

والطيور تعاطفت مع الناس الذين رأتهم يقعون تحت سطوة فعل قاس، وعبرت عن تعاطفها معهم بطريقتها الخاصة، فالطيور التي كانت

---

[1] بلسنر، هلموت: ١٩٦٩ - الإنسان بوصفه كائنا حيا، تر: مجدى يوسف. فكر وفن. ميونيخ، ع ١٣، س ٧، ص ٤.

موجودة في قفص في غرفة مدير السجن "توري"، كانت تقفز، وتنظر بطريقة استهزاء، حين ترى رجب إسماعيل ورفاقه يضربون، ويذلون "كانت الطيور تغرد إذا دخلنا، كانت تنتقل من طرف القفص إلي الطرف الآخر، وتنظر إلينا بسخرية، وتقفز، كانت هكذا، حتى ونحن نضرب، التفتت مرة وأنا ملقى على الأرض ويداي معصوبتان تحت ظهري.. كنت أتمزق من الألم، كنت أريد أن أبكي، رأيتها ما تزال تقفز"[1] إن الأسلوب القمعي المهين الذي يلقاه رجب أثناء التحقيق معه في غرفة مدير السجن، والذي يعتقد بأنه أسلوب دنيء يحتقره كل إنسان يعرف للإنسانية معنى، جعل رجب إسماعيل حين رأى حركات الطيور ونظراتها، يتعاطف معها، ويكسبها مشاعره، ويمنحها ذاته، فرآها من خلال ذاته التي اكتسبتها فباتت تنظر بسخرية إلي ما حولها.

و"العصافير" التي كانت واقفة على سور بيت ابن نفاع تزقزق، حين حانت لحظة وفاة "مفضي الجدعان" ماتت، وسقطت على الأرض دفعة واحدة "فالعصافير التي كانت تقف على سور البيت تهاوت جميعها في لحظة واحدة، وأكلتها الكلاب التي كانت تتيح بطريقة غريبة"[2] إن تعاطفها مع المتوفى بموتها فجأة – والتعاطف بالموت هو أقصى درجات التعاطف–حكاه الراوي معتمدا على ذاكرة بعض الصبية الذين كانوا عائدين من المدرسة إلى بيوتهم في التلال الغربية[3]، وهذا الحكي هو نوع من تعاطفه مع مفضي الجدعان بطريقة غير مباشرة.

و"يمام" مسجد السلطان خزعل، اهتاج وغضب، وملأت أصواته فضاء المسجد، حين رأى عددا من الناس ينفذ الحد عليهم بقطع أيديهم، لأنهم

---

[1] شرق المتوسط، ص ٩٧.

[2] التيه، ص ٥٣٧.

[3] المصدر نفسه، را ص ٥٣٧.

عدوا لصوصا، وقد بلغ تعاطفه معهم حد مشاركة شمران العتيبي الفعل الذي كان يقوم به "قال كل من كان في ساحة مسجد السلطان خزعل، ورأى شمران هائجا مثل جمل، إن يمام المسجد لم يكن يقل عن شمران هياجا، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماما، كما لم يفعل من قبل، ويصفق بأجنحته، وتصدر منه أصوات وحدها كانت، وصوت شمران تملأ الساحة، وفي لحظة معينة عندما انتزع شمران غترته، وعقاله، وأخذ يلوح بهما، وكأنه يهزج أو يهد، كان اليمام فوق رأسه يشاركه، كان يسف، ويحلق"[1]، إن تعاطف يمام المسجد مع الناس الذين نفذ الحد عليهم، بمشاركة شمران العتيبي الهياج والغضب، وإصدار الأصوات العالية، هو تعاطف مباشر للذين كانوا متحلقين حول هؤلاء الناس الذين قطعت أيديهم، فحين شاهدوا اليمام يطير، ويصدر أصواتا عالية، استغرقوا في حركته، وسماع صوته العالي، فتعاطفوا معه، ومنحوه مشاعرهم الغاضبة، ففسروا ما يفعله اليمام من خلال مشاعرهم. ونريد ان نقول عن تعاطف اليمام مع هؤلاء الأشخاص ، إن الراوي يعبر عن وجهة نظره المنسجمة مع سلوك شمران العتيبي الإنساني، والأخلاقي، وكشف اللثام عن موقفه (الراوي) من السلطة الحاكمة في موران بلجوئها إلى مثل هذا العقاب بدلا من رعاية الفقراء وتأمين لقمة عيشهم.

و"الأشجار" في روايات عبد الرحمن منيف لم توظف على أنها جزء ضروري من الطبيعة لسياق محدد من الحكي الروائي فقط، بل وظفت لتدل على معنى عظيم غير هذا المعنى البسيط، ولتقوم بدور آخر أكثر حركة وجمالا فلذلك أنسنت، وتبلور حسها الإنساني بوضوح ظاهر.

---

[1] الأخدود، ص ٦١١.

ولأن الأشجار كانت المحور الأكثر بروزا في حياه الياس نخلة، لأنها ارتباطه الوحيد بالحياة[1]، نالت جل اهتمامه، وقد تماهي معها، وغدت ذاتـــه، فرآها إنساناً يحس، ويحن، ويعطى، وبلور حسها الإنســـاني بمعـــانٍ ســـامية تنوعت حسب الموقف الشعوري الذي يعيشه. وقد قرن الأشجار والمرأة فـــي رتبة واحدة "إن النساء والأشجار لهن طبيعة واحدة"[2]، وبذلـــك يكـــون قـــد أنسنها، ومنحها أعظم سمه إنسانية خيرة، لأن المرأة (إنســـان) هـــي رمـــز للخصب، والأشجار (الطبيعة) رمز للخصب. ومن هذا الفـــهم أحـــس بـــأن الأشجار التي زرعها مع والده كانت إنساناً خيّرا رقيقا وجميلا "كانت أشـــجار البستان تزهر في ذلك الوقت، وتصرخ بنداءات حنونة، تبشر بموسم الخـــير، ولم اكن أرى في الدنيا أجمل منها، كانت أجمل مـــن الصبايـــا، وأرق مـــن النبع"[3]. ثم أعلى من شانها، وعظم إنسانيتها، حين شبه الأم التي هي رمـــز للحنان والإحساس والطيبة بها "إن الأمـــهات .. يمتلكـــن إحساســـاً خارقـــاً بالأشياء، إنهن مثل الأشجار لا يتكلمن كثيراً، ولكن يعـــبرون عـــن أنفســـهم بطريقة لذيذة[4]. ولأنه حرم من الأشجار، أصبحت الشغل الشاغل الذي هيمـــن عليه طيلة أيامه وهو معتصم بالجبل، حيث كانت تتراءى له بحالات إنســـانية متنوعة حسب تغير الأيام في فصول السنة "كنت أفكـــر فيـــها ليـــل نـــهار، أتصورها واقفة بشموخ وسط السهول الجرداء المترية، أتصورهـــا تداعـــب الرياح، وتحتضن العصافير .. كنت أتصورها مقرورة فـــي الشـــتاء، وقـــد نحلت، وتعرت، وتقترب من الأرض عندما تصفعها الريـــاح، تريـــد حمايـــة

---

(1) الأشجار واغتيال مرزوق، را ص ٤٨.

(2) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(3) المصدر نفسه. ص ٤٨.

(4) المصدر نفسه. ص ٥٥.

ودفئاً"[1]. إن هذه السمات الإنسانية العظيمة التي منحها للأشجار ناتجة عن تماهيه، وعن حبه لها، وتعاطفه المتواصل معها، وكان يمنحها مشاعره الآنية وأفكاره بشكل مستمر، ويراها من خلال مشاعره، وأفكاره، ويعاملها معاملة عذبة تدل على أنه إنسان يتمتع بحس جمالي رائع تجاه الطبيعة.

وقد تجلت روعة إنسانية "أشجار وادي العيون" بمحاولتها التشبث بالأرض، وهي تتوجع، وتصارع مقدمات التراكتورات ذوات الحافات المسننة، فعندما كانت هذه الآلات "..تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار، وتبدأ تمزقها، وترميها أرضا الواحدة بعد الأخرى.. كانت الأشجار وهي تميل، وتترنح قبل أن تسقط، وتصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادى نداء أخيراً موجعاً، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد في محاولة لأن تتبثق، لأن تتفجر مرة أخرى"[2]. إن إحساس الأشجار بفراق أرضها أوجعها، ودفعها إلى الصراخ، وطلب المساعدة كمحاولة وحيدة للتشبث بالأرض التي تقتلع منها، لتبقى فيها إلى الأبد. وهذا الإحساس هو نتيجة تعاطف الراوي المتعاطف مع البشر والحياة والطبيعة في وادي العيون. وحين كان يحكي عملية اقتلاع الأشجار تعاطف معها، ومنحها مشاعره الآنية المتوهجة، ورغبته في أن تبقى في مكانها ولا تجتث، لأنها مؤشر على الخصب والحياة والتاريخ في ذلك المكان. ولذلك رآها من خلال مشاعره، ورغبته إنساناً يتوجع، ويستغيث رافضاً الاجتثاث ليبقى في مكانه إلى الأبد.

و"الأشياء" الجامدة التي لا تحس، ولا تشعر، ولا تعي، بدت متحلية ببعض المشاعر الإنسانية في روايات عبد الرحمن منيف، فالجسر الذي

---

[1] المصدر نفسه، ص ٥١.

[2] التيه، ص ١٠٥.

شارك زكي نداوي رفاقه في بنائه، لم يكن مجـــرد مجموعـــة مـــن القطـــع الحديدية الصماء العديمة الحس، بل كان إنساناً شعر بـــالذل والإهانـــة، لأن الجنود الذي بنوه، تخلوا عنه، ولم يمروا من فوقه ليصلوا إلى ساحة المواجهـــة مع العدو "كان الجسر ونحن نتركه في ذلك اليوم ذليلاً[1]، إن زكـــي نـــداوي الذي يشعر بالذل يملأ كيانه، حين ترك أرض المعركة، وأدبر نحـــو الخلـــف لينجو بنفسه، ألقى نظرته الأخيرة على الجسر، ومنحـــه مشـــاعره الذليلـــة، وذاته، ولذلك رآه ذليلاً ولا سيما أنه يعتقد بـــ "أن للجسور أرواحاً"[2].

وقد ارتقت إنسانية الجسر إلى حد البطولة، وهـــو يقـــارع الأحـــداث وحيداً "تركنا الجسر وحيداً، وكان بصدره يواجه كـــل شـــيء"[3]، إن إدبـــار الجنود الذين تخلوا عن جسرهم، وعرضوه للأذى، جعل زكي نداوي الذي لـــم يكن راغباً في تركه، لأنه كان يسعى إلى مواجهة العدو، ليرمي الرصـــاص على صدره[4]، يحس بأنه بقي وحيداً يواجه العـــدو عوضـــاً عـــن أبنائـــه. فتعاطف زكي معه، ومنحه رغبته في مواجهة العدو، فرآه من خـــلال هـــذه الرغبة، ولذلك اعتقد أن الجسر راح يواجه العدو لوحده.

و"المزهرية" التي كانت في غرفة "عادل الخالدي" وهو في المشـــفى، لم تكن مجرد قطعة زجاجية تحتضن الزهور، بل كانت إنساناً وفياً يريـــد أن يتشبث بإنسان آخر سيفارقه "المزهرية التي كانت تبقى صامتة على طـــرف الشباك أياماً طويلة، أخذت تنظر إلى بحزن، تحولت إلى عين كبيرة، لا تتعب من التحديق إلي، وكأنها تطلب مني البقاء وترجوني"[5]، إن اضطرار عـــادل

---

(1) حين تركنا الجسر، ص ١٣٢.

(2) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(3) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(4) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(5) الآن هنا .. أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ١٣٥.

الخالدي إلى مغادرة المشفى ولد في نفسه شعور الحزن، لأنـــه كـان يلقـى الرعاية والاهتمام والمحبة من كل العاملين فيه، فألف المشفى ألفـة كبـيرة، وحين هم بالخروج من غرفته، ورأى المزهرية التي كان ينظر إليها خـــلال وجوده في الغرفة، حزن على فراقها، فتعاطف معـــها، ومنحـها مشـاعره الحزينة، ورغبته في البقاء، ولذلك رآها إنساناً حزيناً يدعوه إلى البقاء.

وظواهر الطبيعة لم تكن في منأى عن عملية الأنسنة، فقد أنسنت مثل عناصر الطبيعة، وخرجت عن معناها الطبيعي الصرف إلى معنى آخر أكـثر روعة من معناها المحدد. فالقمر في عيني الياس نخلة لم يكن مجرد هالة مـن نور تسبح في صدر السماء ليلاً، بل كان وجه إنسان كئيـب مشـرف علـى البكاء "كنت أنظر إلى القمر فأرى وجهاً حزيناً، يكاد يبكي، وهو يطل علـــى الطيبة"[1]. إن إلياس نخلة كان يشعر وهو معتصم بالجبل واللوعة على بلدتـه التي ابتأست بعد أن قطعت أشجارها، وحين رأى القمـــر بنـوره المضـيء يتصدر صفحة السماء المعتمة تأمله، ثم استغرق فيه، ومنحه مشاعره الحزينة الآنية، ورآه من خلال هذه المشاعر الحزينة وجه إنسان حزين يكاد أن يبكـى على الطيبة، وهو يطل عليها، فالقمر ما هو إلا وجه اليـــاس، وهـذا ليـس بمستبعد لأن الإنسان كثيراً ما يرى القمر حسب حالته النفسية التي يعيشـــها، فالإنسان السعيد يرى القمر كأنه وجه إنسان ضاحك من ســعادته، والإنســان الكئيب يراه كأنه وجه إنسان شاحب من شدة الحزن.

وما نود أن نقوله في هذا السياق: إن الياس نخلة بأنســنته للطبيعـة (الحيوان، الأشجار، القمر) وارتباطه بالمكان (الطيبة)[2] يكشف عن نظرتـــه الجمالية إلى الحياة بمفهومها الشامل، وهو كأي إنسان شعبي يعتمد في حياتـه

---

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٥٢.

[2] المصدر نفسه، را ص ٤٦، ٤٨.

على الارتباط بالطبيعة لعطائها الخير، يمنح عناصرها ومظاهرهـــا أرواحـــاً بشرية تدرك، وتحس، وتشعر، وتعطى، وتحزن، لأنه لا يســـتطيع أن يـــرى العالم الطبيعي المحيط به شيئاً جامداً، لا حياة فيه. وهذه النظرة في تقديرنـــا هي نظرة الروائي عبد الرحمن منيف إلى الحياة، وهـــي جـــزء مـــن بنيتـــه الفكرية التي تجلت في أول عمل روائي له، وتعددت سماتها في الأعمال التـــي تلت تلك الرواية.

والقمر الذي كان يملأ فضاء حران بنوره المشع أول المساء، غـــاب في تلك الليلة حزناً على موت مزيان غرقاً أثناء عملية تعميـــق البحـــر فـــي شاطئ "حران" فحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد، ولا يتذكر أحد منهم أنه رأى القمر الذي كان يمـــلأ الســـماء"[1]. إن اســـتغراق العمال الحزانى بموت زميلهم "مزيان" الذي يحبونه، ويكنون له كـــل تقديـــر وإعجاب بعد أن جاء ابن الراشد إلى معسكر العمال ليقدم العزاء لهاجم شـــقيق مزيان[2] شغلهم عن رؤية القمر الذي كانوا قد شاهدوه أول الليل، ولذلك لـــم يعد بإمكان أي واحد منهم أن يتذكر أنه رآه مرة ثانية. وهذا التغيـــب للقمـــر هو دلالة على تعاطف الراوي مع مزيان بطريقة ضمنية، وتعبير عن اعتقـــاده بأنه ضحية يستحق التضامن والتعاطف.

والقمر الذي كان يملأ السماء مساء يوم الجمعـــة الـــذي أعـــدم فيـــه "خميس البطي" سقط في البحر حزناً عليه "لما بلغ الخبر عمـــر زيـــدان لـــم يصدق .. وذكر من كان موجوداً أن عمر زيدان ومحبيـــه منـــذ أن ســـمعوا الخبر وحتى الفجر لم يهدءوا، ولم يتوقفوا عن الشراب والغناء والبكاء، وذكر أيضاً أنهم نزلوا إلى البحر حين نزل القمر وطلبوا من الذين على الشـــاطئ،

---

[1] التيه. ص ٢٨٣.

[2] المصدر نفسه، را ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.

أو من كانت بيوتهم قريبة أن يساعدوهم في انتشال القمر قبل أن يغرق، وينتهي"[1]. إن غياب القمر بدورانه الطبيعي عن سماء الطريفة المطلة على البحر أوهم الناس أن القمر سقط في البحر، فحاولوا إنقاذه، والراوي بحكيه لهذا الحدث يعبر عن تعاطفه الضمني مع خميس البطي مرة ثانية، لاعتقاده بأنه ظلم ظلما شديدا، لأنه كان أحد الثلاثة الذين تم إعدامهم جورا وظلما بعد أن اختيروا من السجن بشكل عشوائي ليتم تأديب الناس بإعدامهم[2].

و"الريح" لم تتحرك في فضاء الأمكنة لكونها ظاهرة طبيعية، بل كانت إنسانا ساميا، يحس بأخيه الإنسان، ويتعاطف معه حسب الموقف الذي يعيشه، فالريح شاركت الراوي فرحته، حين عرف اسم المرأة التي تعلق بها، وراح يلفظه بتلذذ "وأنا أصعد باتجاه شجرة الصنوبر بدأت أردد اسمها .. رددته بصوت عال، ثم بدأت أكتشف اسمها في الأصوات حولي، كان يصعد من صوت الريح"[3]. إن إحساسه بأن الريح تلفظ اسم "ليليان" هو نتيجة الفرحة الكبيرة التي غمرت قلبه، وجعلته يردد اسم حبيبته بشكل لا شعوري وهو مندمج بالطبيعة، وحين سمع صدى صوته، ظن أن الريح تلفظ لِيليان.

والريح كما فرحت لفرح الراوي، حزنت على موت أحد سجناء سجن عمورية المركزي و"لأول مرة في هذا الشتاء الأجرد .. كانت الريح في الخارج بين فترة وأخرى تهب، وكأنها تذكرت الحاج مصطفى فأخذت تولول"[4].

---

[1] بادية الظلمات، ص ٤١٣.

[2] المصدر نفسه، را ص ٤٠٩.

[3] قصة حب مجوسية، ص ٤٠.

[4] الآن .. هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، ص ٤٨٣.

و"السماء" أيضا عبرت عن حزنها على وفاته وتعاطفها معه "كانت السماء وهي تنزل القطرات القليلة، وكأنها تذرف الدموع وتتنكره أيضا"[1]، إن حزن الريح والسماء على وفاته هو انعكاس مباشر لحزن "عادل الخالدي" عليه، وتعاطفه معه، فحين سمع صوت الريح، وصوت المطر لأول مرة في فصل الشتاء القاحل آنذاك، استغرق فيهما ومنحهما مشاعره الحزينة، فأحس بأن الريح تولول والسماء تمطر حزنا على وفاة صديقه الحاج مصطفى.

و"الخريف" حين عم الصمت في مدينة موران نتيجة الاضطهاد الذي مارسته السلطة الحاكمة في السلطنة الهدبية أثناء حربها مع الدواحس، شارك الناس في حزنهم وصمتهم وبدأ عاريا من كل ملامحه المعروفة "الخريف الذي بدأ موحلا شارك الناس الصمت، إذ لم تعد ترى في السماء غيمة، ولا تسمع خفقة"[2]، إن خلو الخريف من الغيوم، وصوت الريح الخفيف هو الذي جعل الراوي المتعاطف مع البشر في موران والدواحس في أزمتهم يحس - وهو يحكي تلك الأحداث الأليمة التي وقعت في فصل الخريف آنذاك الذي بدأ بلا ملامحه المتميزة - بأن الخريف تجرد من ملامحه حزنا على البشر وتعاطفا معهم.

وما نلاحظه في تبلور الطبيعة هو اتسامها بالشمولية، فقد أنسنت الحيوانات والطيور والأشجار والأشياء والقمر والرياح والسماء والخريف، واكتسبت صفات إنسانية سامية، وبأنسنتها خرجت عن وظيفتها البيولوجية أو الطبيعية، وقامت بدور إنساني خلاق هو الإحساس بواقع البشر الأليم، والتعاطف معهم، وقد لا يقع هذا العمل في الحياة، وإن كانت بعض الأفعال التي قامت بها الحيوانات واقعية، لكنه يتسق مع فهم عبد الرحمن منيف

---

[1] المصدر نفسه، ص ٤٨٣.

[2] بادية الظلمات، ص ٥٠٤.

للواقعية، فالواقعية في اعتقاده "ليست هي الأشياء التي حصلت بالفعل، وإنما هي الأشياء الممكنة الحصول حتى ولو لم تحصل واقعيا"[1]، فجاءت أنسنة الطبيعة منسجمة مع مفهومه للواقعية، لأن الفن ليس تقليدا لعالم الواقع، ولا نسخة طبقة الأصل أمينة عن الأشياء، وإنما هو رؤية روحية تعيد خلق الواقع من جديد بغناء أكثر، أو تخلق واقعا جديدا أعمق من الواقع المباشر وأعظم ثراء[2].

والدور الإنساني الذي قامت به الطبيعة هو التعاطف مع البشر البسطاء الذين وقعوا تحت قسوة ظروف الحياة، وهيمنة السلطة الحاكمة المستبدة في أماكن عدة وكان الحزن هو محور تعاطفها مع البشر باستثناء حالتين فقط كانتا تعاطفا في حالة الفرح، وهما فرح الحمار سلطان بعودة صاحبه إلياس نخلة، وترديد الريح لاسم ليليان، وقد بلغ تعاطفها في بعض الحالات حد الروعة حين شاركت الذين تعاطفت معهم فعل الموت، فاتسام تعاطف الطبيعة بالحزن على البشر البسطاء المغلوبين على أمرهم الذين لم يكونوا في حالة اغتراب عنها دليل على حالة الواقع السيىء الذي كانوا يعانون منه معاناة فظة، ولذلك يكون تعاطفها معهم استنكارا لما حل بهم، واحتجاجا غير مباشر على كل من أساء إليهم، وظلمهم، وهضم حقهم، وجعل حياتهم خالية من الفرح والكرامة. ولذلك مكنتنا أنسنة الطبيعة من تلمس تجليات العالم الخارجي في تلك الأماكن التي عاش فيها البشر الذين تعاطفت معهم، وجعلتنا الحياة تتسم بالحيوية والإنسانية بخلاف ما هي عليه.

---

[1] السامرائي، ماجد، فاضل، جهاد: ١٩٨٠ – حوار مع عبد الرحمن منيف، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، عدد ٦/٧ تشرين الأول وتشرين الثاني، ص ١٣٧.

[2] اليافي، د. نعيم، ١٩٨٢، التطور الفني لشكل القصة في الأدب الشامي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، را ص ١٩٣.

وعبد الرحمن منيف حين أنسن الطبيعة بشكلها الشـــمولي، وجعلـــها تتعاطف مع الإنسان، وتعبر عن سخطها واحتجاجها لما يحدث، عـــبر عـــن ظاهرة الارتسام النموذجي لما ينبغي أن تكون علية الطبيعة في لحظة إنسانية لا تخضع للقياس العقلي وعبر عن مثله الأعلى، لأن الطبيعة لا تشرق جماليا إلا "عندما يدخل الإنسان استيعابها الفكري في تيار دورة تصل الطبيعة بمـــا يعلو عليها، وبالمثل الأعلى"[1]، وأجل الإنسان، و أعلى من قدره، ودافع عـــن حقه في الحياة الكريمة ورد له كرامته المسلوبة، لأنه يعتقد أن الإنسان هـــو مركز الحياة، وكل شيء يجب أن يكون في خدمته، وقد قال لنا فـــي حديـــث خاص حين سألناه عن هذه القضية "أن الطبيعة بعناصرها ومظاهرها تـــدور حول حلقة واحدة، والإنسان هو مركز هذه الحلقة"[2]، ولأن "كل عمل عظيـــم يكشف موقف مؤلفه حيال الوجود"[3]، "كان الإنسان هو الغاية المطلقة التـــي تمت أنسنة الطبيعة من أجلها، "فعبد الرحمن منيف لم يرد الكتابة لذاتها، ولـــم يبغها بقصد آخر غير التعبير النزيه عما في نفسه من ألـــم"[4]، ولده ترهـــل الواقع الإنساني الذي يعاني منه الإنسان في المجتمع العربي معانـــاة شـــديدة القسوة.

---

[1] بلوز، د. نايف: ١٩٨٣م – علم الجمال، جامعة دمشق، ط٢، ص ٨١.

[2] جرى حوارنا مع عبد الرحمن منيف في دمشق، أيلول ١٩٩٤.

[3] برتلمي، جان: بحث في علم الجمال، تر: د. أنور عبد العزيز، مرا: د. نظمي لوقـــا، دار نهضة مصر، القاهرة، ص ٥٧٠.

[4] الموسوي، د. محسن: ١٩٨٨ – الرواية العربية (النشـــأة والتحـــول)، دار الآداب، بيروت، ط١، ص ٣١٥.

الفصل الثالث

مستويـــات الأنسنـــة

إن الحيوانات والطيور هي كائنات ضعيفة غير عاقلة، تعتمد على غريزتها البيولوجية في الحياة ولكنها أنسنت، وتميزت بسمات إنسانية خيرة، وقامت بدور إنساني لم يقم به البشر - باستثناء موقف شمران العتيبي من عملية الحد - وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنها حين أنسنت تساوت بإنسانيتها مع الإنسان الذي لم يجد فرقا بينه وبينها، وتميزت عن البشر بإنسانوتها الخيرة، حين تعاطفت مع الناس المعذبين الحزانى والمغلوبين على أمرهم، وتفانت مع غيرهم، وكانت في حالة وحيدة أدنى من الإنسان لأنها لم تؤنسن. وهذا يعني أن إنسانية هذه الكائنات لم تتجل في مستوى واحد، وإنما تعددت مستويات إنسانيتها، ولأنها تميزت على الإنسان بإنسانيتها وجدنا من الواجب علينا أن نقدم هذا المستوى على بقية المستويات إنصافا لها، وتقديرا لإنسانيتها الخيرة.

١ - أفضل من الإنسان:

إن الحيوانات والطيور حين تتصرف تصرفا حسنا وذكيا بشكل متميز عن سلوك الإنسان، تعد من دون أي شك أفضل منه، لأنه صاحب عقل مفكر، يمكنه من التصرف بشكل مناسب وسليم، فسلطان حمار الياس نخلة بذكائه صاحبه إذ يحدد الطريق الذي يجب أن يسير عليه الياس ليوفق في بيع الأشياء التي يحملها "كان حمارا عجيبا وذكيا .. كان يفهم أكثر من البشر دون أن يقول كلمة واحدة .. وهو الذي كان يشترى ويبيع للناس أكثر مما أفعل' أنا. كان يقودني من قرية لأخرى، وكأن الحيوانات تمتلك حواسا تجعلها تفهم أكثر من البشر .. فعندما أطيعه نبيع ونربح، أما إذا عاندته، وهذا ما كنت أفعله أول الأمر، فينقضي يومنا دون أن نربح شيئا[1]. إن اعتقاده بأن حماره ذكي ويعي أكثر من البشر ناتج عن إحساسه بأنه كان

---

[1] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ٦٧.

يوفق في بيع ما يحمله من أشياء حين كان يتجه إلى القرية التي يولي سلطان وجهه نحوها، بخلاف فشله في بيع الأشياء حين كان يمتنع عن الذهاب إلى القرية التي كان سلطان يريد أن يتجه إليها. ويبدو أن حاجة الناس إلى شراء الأشياء كانت ملحة في القرية ومتزامنة مع اختيار سلطان لهذه القرية، بخلاف عدم حاجة الناس لشراء الحاجيات في القرية التي كان الياس يختارها.

و"وردان" كلب زكي نداوي لم يكن مجرد كلب صيد يهوى التقاط الطيور المصابة التي تقع على الأرض، بل كان حيواناً تميز بشدة ذكائه، وحدة إحساسه عن صاحبه، "أنت أذكى مئات المرات من زكي نداوي. لديك دائماً ما تفعله"[1] إن هذا الإعلاء من قدر الكلب ناتج عن الحركات والأفعال التي كان يقوم بها وردان بشكل متواصل في حين أن زكي نداوي كان قوالاً، ولم يتمكن من فعل ما أراد أن يفعله.

وقد بلغ الأمر بزكي درجة قصوى وذلك حين فضل الحيوانات بشكل عام عن البشر، "الحيوانات أحسن آلاف المرات من البشر، لأنها مفيدة ولأنها تستطيع أن تدافع عن نفسها"[2]، إن تفضيله للحيوانات على البشر ناتج عن اعتقاده بأن البشر لا فائدة منهم، لأنهم لم يحاولوا مجابهة عدوهم، ورده عن أرضهم.

ولأن الطيور تتمسك بأعشاشها، ولا تتخلى عنها فضلها أيضًا على البشر "الطيور مخلوقات جسورة، وتختلف عن الإنسان، فهي لا تتخلى عن أعشاشها، لكن ما هو العش؟ العش وطن الطيور .. أما البشر.. وبصقت"[3].

---

[1] حين تركنا الجسر، ص ١٧٧.

[2] المصدر نفسه، ص ١٤٩.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٢، ومواضع أخرى فضل فيها زكي نداوي الحيوانات والطيور على الإنسان، راص ٢٣، ١٧٤، ١٧٥.

إن إعجابه بشجاعة الطيور، وتمسكها بأعشاشها التي هي أوطان لـها جعلـه يفضلها على البشر في وطنه الذين تميزوا بضعفهم وخوفهم، وتخلـوا عـن أرضهم وتركوها لقمة سائغة لعدوهم.

و"حمار" ابن المدور كان أذكى من "الدريبي" الذي وصل إلى الـهند والسند ومصر[1]، وذلك حين أضاع الدريبي أهل وادي العيون خلال رحلتـه معهم إلى الخبرة الشرقية فبقى في مكانه تائها، لا يعرف طريق العودة، لكـن أحد حمير وادي العيون أوصله إلى الوادي. وقد روى متعـب الـهذال هـذه الحادثة لابنه هديب: "فالدريبي راح مع الجماعة إلى الخبرة الشـرقية، ولمـا التفتوا ما وجدوا له أثرا .. ضاع الدريبي، ملـح وذاب، ولـولا رحمـة الله، وفطنه حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومـات .. حمـار ابـن المـدور للدريبي هو اللي قاده، وهو اللي رجعه[2]، إن افتيـاد حمـار ابـن المـدور للدريبي الذي ضاع، ولم يتمكن من العودة إلى وادي العيـون وهـو الرجـل الخبير بالأمصار، دليل على أن الحيوان في هذا الموقف أفضل من الإنسـان، والحمار هنا كان بمثابة الدليل للدريبي، والتفضيل في هذا السياق لم يفصـح عنه الراوي بطريقة مباشرة لأنه حكى هذه الحادثة معتمدا على قول متعـب الهذال.

و"الطيور والحيوانات" كانت أفضل من البشر فـي نظـر الدكتـور "صبحي المحمليجي" "الطيور والحيوانات أفضل من الإنسان لأنها تعرف كيف تعيش. أما الإنسان فيعرف شيئا واحدا كيف يقضـي علـى الآخـر"[3]، إن تفضيله للحيوانات والطيور على البشر هو انعكاس مباشر لحالتـه الصعبـة

---

[1] التيه، ص ٤١.

[2] المصدر نفسه، ص ٤١ - ٤٢.

[3] المنبت، ص ١٢٨.

التي كان يعاني فيها من الضياع والغضب والقلق، ولإحساسه بالوحدة بسبب غياب زوجته وداد الحايك التي لم تسعده، وتفهمه،ولجهله حقيقة ما يفعله ابنه غزوان وما يجنيه من أرباح، ولرغبته التي لم تتحقق في السفر إلى الولايات المتحدة[1]، فتراكمت عليه هذه المتاعب في إحدى الأمسيات، وهو يصغي إلى تغريد الطيور الذي كان يأتيه من الحديقة القريبة من غرفته.

والأشياء التي أنسنت كانت أفضل من الإنسان، "الجسر أقوى من الرجال، وأذكى منهم، لأنه لا يغادر مكانه أبدا .. أما الرجال حين يتركون الجسر، فإنهم ينتهون"[2]. إن تفضيل زكي نداوي للجسر على البشر لشجاعته، وذكائه، هو نتيجة الهزيمة التي يعاني منها بعد أن أجبر ورفاقه على ترك الجسر والفرار من ساحة المعركة قبل بدئها، فبقي الجسر في مكانه.

وفي هذا المستوى نود أن نقول: إن عبد الرحمن منيف حين أنسن الحيوانات والطيور والأشياء، في رواياته، أعلى من شأنها، وقيمتها، ومكانتها وحين قارنها بالإنسان العاقل وفضلها عليه، زاد من قيمتها، وإنسانيتها وهذا التفضيل هو إثبات لحالة الضعف التي تعتري الإنسان، وإدانة له، لأنه تخلى عن قيم الإنسانية والمثل والمبادئ، وفضح للجبناء الذين تركوا أرضهم،ولم يدافعو عنها.

وهذا التفضيل ذكره البشر الذين كانوا على علاقة وثيقة بالطبيعة، ولم يتدخل (الراوي) في تفضيل هؤلاء البشر للحيوانات والطيور على الإنسان. لأنه في تقديرنا معجب بهذا التفضيل، إن لم يكن يؤيده.

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٢٦، ١٢٨.

[2] حين تركنا الجسر، ٤٣.

٢ - توازن وانسجام:

لم تتجل الحيوانات والطيور بإنسانيتها أفضل من الإنسان بشكل مطرد، فقد توازنت بحياتها، وأفعالها مع حياة الإنسان وأفعاله، ونشأت بينهما ألفة وأخوة نتيجة الانسجام بينهما، فالياس نخلة المزارع الذي هجر بلدته، وشهد مراحل تبدل الحياة فيها، وتشرد في الجبل، والمدينة وتنقل بين القرى، وعمل في عدة مهن، وتزوج أكثر من امرأة، وأدرك قيمة الطبيعة، وعرف الحياة الإنسانية عن كثب، وصل إلى اعتقاد مفاده أن "حياة الإنسان تتشابه مع الكلاب والحمير .. إذا كانت صادقة"[١]، وهذا الاعتقاد ناتج عن الحياة التي عاشها بصدق، ولمس خلالها حياة أحد عناصر الطبيعة (الحمار) الذي كان محباً له، ولهذا السبب أكد الياس على عمق هذه العلاقة التي كانت صادقة إلى درجة الألفة "بعد أن اشتريت سلطان .. تولدت بيننا ألفة قلما تجتمع لاثنين"[٢]، فالألفة هي التي تخلق التعايش بصدق بين الطرفين، وتجعلهما متشابهين، ومنسجمين.

وزكي نداوي الذي أحب كلبه وردان، وفضله لذكائه على البشر، أكد في نفس الوقت أنهما متساويان "نحن أخوة يا وردان، نعم أخوة وفينا شيء مشترك. صفات مشتركة"[٣]، وإكراماً لهذه الرابطة الأخوة، أكد لكلبه أنه سيقاسمه فرحة الظفر بملكة البط "إذا قتلنا الملكة نمنح أنفسنا إجازة طويلة، يجب أن ننتف ريشها، أن ننشره في الشمس بعد غسله، أن نرتبه ليكون وسادة تليق بظهرك ورأسي"[٤]، فهذا النزوع التشاركي دليل على الروح الإنسانية المتوازنة التي يحس بها زكي نداوي تجاه كلبه وردان.

---

[١] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ١١٥.

[٢] المصدر نفسه، ص ٦٧.

[٣] حين تركنا الجسر، ص ١٨.

[٤] المصدر نفسه، ص ١٩٤.

وكذلك عدّ أحد المسنين من أهالي الطيبة أن الحيوانات تتشابه مع البشر، "يستغرب الإنسان أنه في حالات كثيرة لا يمكن التفريق بين الحيوانات والبشر"[1]، "إن استغراب المسن لتشابه الحيوانات مع البشر بشكل كامل هو نتيجة معرفته لما فعله كلب عساف حين تعرض عساف للعاصفة في الصحراء.

١ – أدنى من الإنسان:

من المعروف أن الإنسان بإنسانيته السامية، وحسن أخلاقه، أفضل من الحيوانات والطيور والأشياء وقد عثرنا على حالة واحدة فقط عدّ فيها الياس نخلة الإنسان أفضل من الحيوانات والطيور "الإنسان أقوى المخلوقات على هذه الأرض، وأضعفها أيضاً، والحيوان له قدرة على المقاومة، ولكن في النهاية يسلم، الحشة الصغيرة تقاوم، ولكن في لحظة معينة تتوقف، أما الإنسان هذا المخلوق العجيب الذي يحمل تحت جلده كل شيء فإنه يستطيع أن يكون ضعيفاً، ويستطيع أن يكون قوياً بلا حدود، إن هذا يتوقف على الإنسان نفسه"[2]، إن اعتقاده بأن الإنسان أقوى من كل الكائنات دليل على تفضيله الإنسان على الكائنات الحية، إلا أن التفضيل مشروط بوجود إرادة الإنسان الصلبة، ورغبته الوطيدة في أن يكون أقوى المخلوقات على الإطلاق إن أراد أن يكون أقواها بكل حق.

وما نلاحظه في هذه المستويات أن عبد الرحمن منيف لم يوازن بين الإنسان والمكان الذي أنسنه وقد اقتصر في موازنته بين الإنسان والطبيعة بكل عناصرها، ومظاهرها باستثناء (الشمس)، وهذا في تقديرنا يمكن أن نرده إلى تأثير البشر بالحيوانات والطيور تأثراً نتيجة علاقتهم المباشرة معها.

---

[1] النهايات. ص ١٤٧.

[2] الأشجار واغتيال مرزوق، ص ١٤٧.

وبشكل عام وجدنا أن الطبيعة كانت مكتظة بعناصرها وظواهرها في المكان، لأن عبد الرحمن منيف لم يقدمه على أنه مساحة جغرافية جرداء، أو كإطار خلفي لوقوع الأحداث، وإنما قدمه كفضاء بشرى، جغرافي صاخب بالطبيعة. وقد نالت الحيوانات والطيور والأشجار وبعض ظواهر الطبيعة جل اهتمامه، فتداخلت في رواياته بقوة وحيوية، ومذاق خاص، فبدت مهمة كأهمية أشخاصه، بل أن أشخاصه تجوهروا عبر الطبيعة المحيطة بهم، وبدوا كأنهم امتداد لها، وهذا الحس للطبيعة، هو جزء من حسه المكانى[1] المتكون نتيجة نشأته الأولى في بيئة كانت علاقتها مع الطبيعة علاقة أولية مباشرة[2]، ونظرته الكلية إلى الحياة، لأنه يرى الكون في مداه الشامل، ويعبر عنه بالشكل الذي يراه، "فالأولية في التأليف تكشف الغطاء عن أولية النظرة إلى العالم في سريرة الكاتب[3]، وعن علاقته بالمحيط الذي يعيش فيه، لذلك يسعى الفنان الأصيل دائما في مؤلفاته إلى استخلاص معنى ظواهر الحياة في تنوعها، وتداخلها، وتكامل ظواهر الحياة، واندراجها في المكان وتداخلها معه، يضفي على العمل الإبداعي طابعا فنيا جماليا، وهذا ما صنعه منيف، مما جعل المكان في رواياته أقرب إلى التشكل والتجسد والإمكان والتكامل، محققا بذلك قيمة جمالية من خلال دخوله في منظومة الكون الشاملة، وكاشفا

---

(1) جبرا، جبرا إبراهيم: ١٩٧٩م – ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ص ٣٦.

(2) دراج، د. فيصل: ١٩٨٨ – حوار مع عبد الرحمن منيف، النهج، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ع ٣٨، را ص ٣٤٧.

(3) لوكاتش جورج: ١٩٧٠ – دراسات في الواقعية، تر: د. نايف بلوز، وزارة الثقافة. دمشق، ص ١٠٩.

في الوقت نفسه جماليا عن موقفه من العالم، "لأن علم الجمال يحدد من زواية معينة علاقة الإنسان بالعالم، وينطوى على نظرة شاملة إلى العالم"[1].

وقد كانت ظاهرة أنسنة الطبيعة تعبيرا عن المثل الأعلى الذي يؤمن به، وينطلق منه في رواياته، ونوعا من مناصرة الإنسان والإحساس به، نتيجة الخلل الذي حدث في واقع الحياة الإنسانية بسبب تقاعس الإنسان عن مناصرة الإنسان، والإحساس بأزمته وقت المحن، وهذا ما حقق جمالا للنص الروائي، فعندما قامت الطبيعة بوظيفة إنسانية خيرة وضرورية، تم التوازن والتكامل في الحياة لأن "الجمال في الحياة، وفي الفن يتولد من التوافق بين ما ينبغي أن تكون عليه الطبيعة، والأشياء، ووجودها الواقعي، فهي جميلة بمقدار ما تفصح عنه من انسجام وتوازن وتكامل"[2].

وفي تقديرنا أن إضفاء ملامح إنسانية سامية على مظاهر الطبيعة وظواهرها لجعل الحياة تتوازن وتتكامل، وتتسم بطابع الروعة، هو عبارة عن تخريج مباشر لذات الروائى عبد الرحمن منيف، ولأفكاره الخلاقة ولنظرته السامية إلى الإنسان، ولفهمه الجميل للحياة الكريمة، كما يجب أن تكون لأن "الرائع الموجود في كافة مجالات الواقع الأخرى، والذي لا يصبح رائعا في عيني الإنسان إلا لأنه إشارة إلى الرائع في الإنسان وفي حياته"[3].

ولذلك بدت أنسنة الطبيعة رائعة بسبب تعاطفها مع الإنسان، ومناصرتها له وقت المحن، وارتباطها بالمثل الأعلى، وتعبيرها عن الحياة تعبيرا حيا رائعا و"الرائع هو الكائن الذي نرى فيه الحياة، الحياة كما يجب أن

---

[1] جماعة من الأساتذة السوفييت: ١٩٧٨ – أسس علم الجمال الماركسى اللينينى، تـو: د. فؤاد المرعى، دار الفارابى، بيروت، دار الجماهير دمشق، جزء ٣، ص ٢٥.

[2] بلوز، د. نايف: علم الجمال، ص ٩٩.

[3] نيشفسكي، ن.غ: ١٩٨٣ – علاقات الفن الجمالية بالواقع، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة: دمشق، ص ٣٤.

تكون حسب مفاهيمنا، والرائع هو الشيء الذي يظهر في ذاته، أو الذي يذكرنا بالحياة"[1]، التي يجب أن نعيشها.

ولأن هذه الظاهرة الجمالية عبرت عن الحياة تعبيرا رائعا، وذكرتنا بالحياة التي يجب أن نعيشها، لابد أن تثير فينا ردود فعل انفعالية، وتغرس قيما إنسانية سامية، وتشعرنا بروعة الحياة، وتنمي فينا دوافع الخير والإحسان والحق، وتزيد معارفنا الجمالية التي تمكننا من معرفة ما لا نعرفه عن الإنسان والأشياء في الطبيعة، لأن "المعرفة الجمالية كشف عن الإنسان وعن الأشياء في واقعها العميق الذاتي وفي أشد علاقتها خصوصية، ولهذا فهي تسمح لنا بأن نتنبأ بما وراء الأشياء والإنسان"[2]، في الوسط الذي يعيش فيه، و"هكذا تغدو علاقة الإنسان الجمالية بالعالم وبأشيائه حافزا لإقامة العلاقة الجمالية بين الإنسان وذاته، والإنسان ومجتمعه، ومثله الأعلى"[3]، وبذلك تتحقق القيمة التربوية المنشودة التي يرغب عبد الرحمن منيف في أن تلقى استجابة واسعة لدى الإنسان.

---

[1] المرجع نفسه، ص ١٨.

[2] برتلمي جان: بحث في علم الجمال، ص ٥٧٠.

[3] بلوز، د. نايف: علم الجمال، ص ٩٦ – ٩٧.

المصادر والمراجع

١- المصادر:

منيف، عبد الرحمن:

١- الأشجار واغتيال مرزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

٢- قصة حب مجوسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

٣- شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٨١م.

٤- حين تركنا الجسر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٦٠، ١٩٩٠م.

٥- النهايات، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٦- عالم بلا خرائط، (بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٧- التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

٨- الأخدود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٩- تقاسيم الليل والنهار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٠- المنبت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١١- بادية الظلمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٢- الآن، هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

٢- المراجع:

١- باختين، ميخائيل: ١٩٩٠، أشكال الزمان والمكان في الرواية، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط١.

٢- برتلمي، جان، بحث في علم الجمال، تر: د. أنور عبد العزيز، تحر: د. نظمي لوقا، دار النهضة مصر، القاهرة.

٣- بلنسر، هلموت، ١٩٦٩م، الإنسان يوصفه كائنا حيا، تر: مجدى يوسف، فكر وفن: ميونيخ، س٧، ع١٣.

٤- بلوز، د. نايف: ١٩٨٢م، علم الجمال، جامعة دمشق، ط٢.

٥- تيشفسكي، ن، غ: ١٩٨٣م، علاقات الفن الجمالية بالواقع، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق.

٦- ثابت، محمد رشيد، ١٩٩١م، روايات عبد الرحمن منيف، أشكالها ودلالتها، شهادة التعمق في البحث، جامعة تونس الأولى، كلية الآداب منوبة.

٧- جبرا إبراهيم جبرا، ١٩٧٩م، ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

٨- جماعة من الأساتذة السوفييت، ١٩٧٨م، أسس علم الجمال الماركسي اللينيني، تر: د. فؤاد المرعي، دار الفارابي، بيروت، دار الجماهير، دمشق، (جزءان).

٩- الحميدي، د. أحمد جاسم: ١٩٨٧م، البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف، دار الأهالي، دمشق، ط١.

١٠- دراج، د. فيصل، ١٩٨٨م، حوار مع عبد الرحمن منيف، النهج، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ع ٣٨.
١١- سالم، د. سالمة إبراهيم، ١٩٨٠م، نقد الرواية من جهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، النادي الأدبي، الرياض.
١٢- السامرائي، ماجد، وفاضل، جهاد، ١٩٨٠م، حوار مع عبد الرحمن منيف، الفكر العربي المعاصر، معهد الإنماء القومي، بيروت، ع ٧/٦.
١٣- الغزي، ثامر، ١٩٧٧م، البنية الدلالية في رواية شرق المتوسط، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب منوبة.
١٤- لوكاتش، جورج، ١٩٧٠م، دراسات في الواقعية، تر: د. نايف بلوز، وزارة الثقافة، دمشق.
١٥- مجموعة من الباحثين، ١٩٧٧م، الإنسان والمدينة في العالم المعاصر، تر: كمال الخوري، وزارة الثقافة، دمشق.
١٦- المعموري، ناجي، ١٩٨٠م، حين تركنا الجسر، الأقلام، وزارة الثقافة، بغداد، س ١٥، ع٤.
١٧- الموسوي، د. محسن، ١٩٨٨م، الرواية العربية (النشأة والتحول)، دار الآداب، بيروت، ط١.
١٨- اليافي، د. نعيم، ١٩٨٢، التطور الفني شكل القصة القصيرة في الأدب الشامي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
١٩- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٣م.

الفهرســـت

المقدمة

الفصل الأول:

تجليات أنسنة المكان الدال على شخصية اجتماعية ١١

الفصل الثاني:

تجليات أنسنة مكونات المكان ٣٩

الفصل الثالث:

مستويات الأنسنة ٦٧

المصادر والمراجع ٧٩

Inv:460000376
Date:9/4/2015

تم بحمـد الله

مـع تحـيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina
1240406